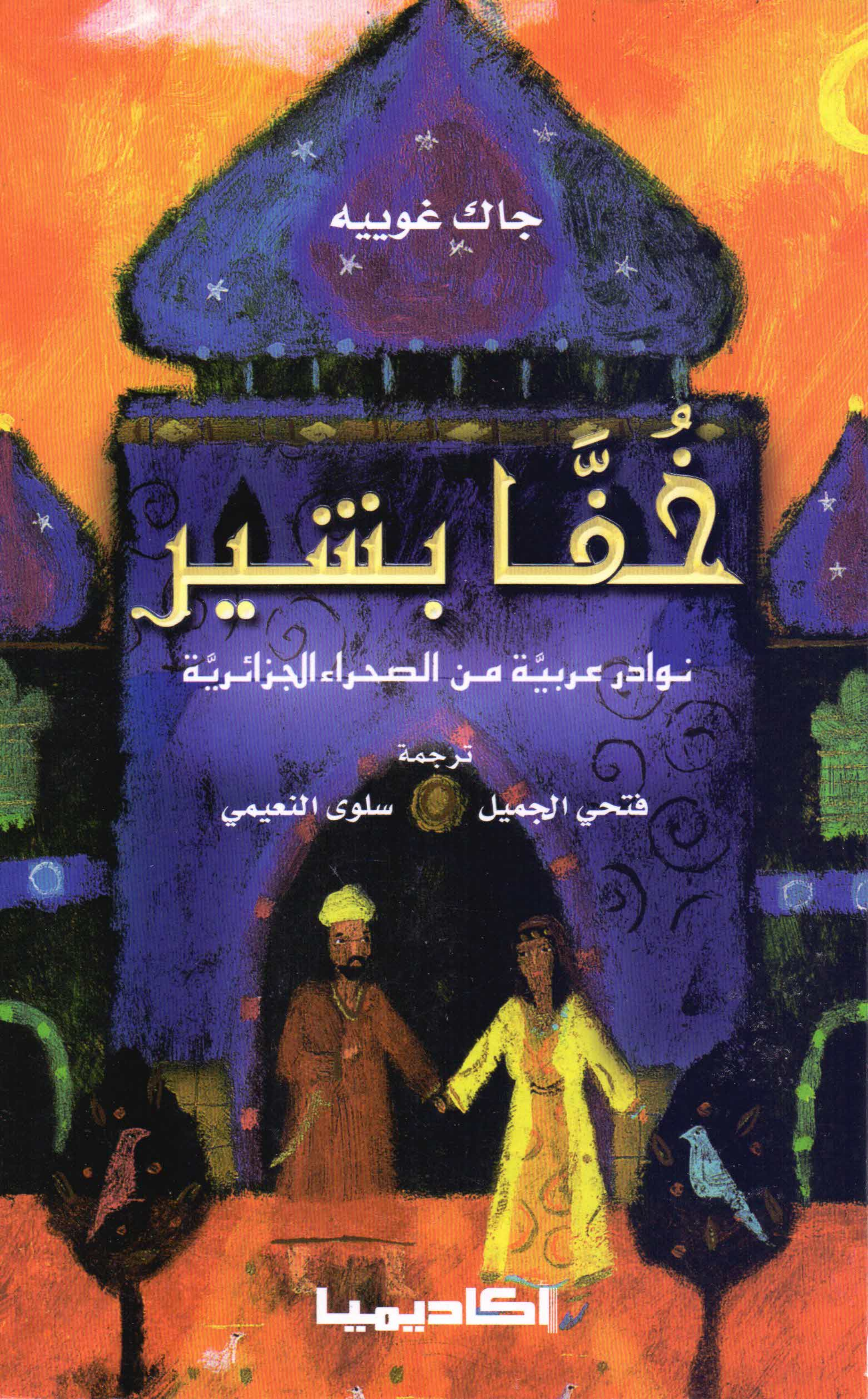
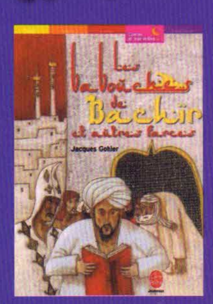


جاك غوييه
خُفَّا بشير
نوادر عربيَّة من الصحراء الجزائريَّة
ترجمة
فتحي الجميل
سلوى النعيمي
أكاديميا



خُفّا بشير



حكايات ونوادر تدور معظم أحداثها في البيئة الصحراويّة التي افتتن بها المؤلّف وأراد أن يحضّ من خلالها على مكارم الأخلاق ويدعو إلى الصدق والكرم والأمانة، بأسلوب مضحك ساخر، يبهج النفس ويملأ الوقت الطويل الذي يجد أهل الصحراء أنفسهم فيه بغير عمل...

جاك غوييه

مثال على ما يمكن تسميته «الاستشراق الأدبي». فهو أديب فرنسي مختصّ في كتابة أدب فرنسي يحاكي الحياة العربيّة في البلاد العربيّة.

وُلِد سنة 1938 في فرنسا، وعمل معلّمًا في الجزائر وأسّس أول جريدة عربيّة في الصحراء.

حصل على عدة جوائز أدبيّة وأصدر ما يقارب خمسة عشر كتابًا.


9 789953 377124



خُفَّا بشير

نوادر عربية من الصحراء الجزائرية

خُفَّا بشير

نوادر عربيَّة من الصحراء الجزائريَّة

جاك غُوييه

ترجمة

فتحي الجميل   سلوى النعيمي



بيروت ـ لبنان

خُفّا بشير

نوادر عربية من الصحراء الجزائرية

أكاديميا إنترناشيونال © (تموز/يوليو) 2011
ISBN: 978-9953-37-712-4

Authorized Translation from the French Language Edition

Les Babouches de Bachir

Cet ouvrage, publié dans le cadre du programme d'aide à la publication Georges SCHEHADE a bénéficié du soutien du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban et de l'Institut français.

الناشر

Academai international — **أكاديميا إنترناشيونال**

Verdun St., Byblos Bank Bldg. — شارع فردان، بناية بنك بيبلوس

P.O. Box 113 - 6669 — ص. ب. 113 - 6669

Beirut 1103 2140 Lebanon — بيروت 1103 2140 لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف

Fax (+961 1) 805478 فاكس

E-mail academia@dm.net.lb بريد إلكتروني

www.academiainternational.com

www.dar-alkitab-alarabi.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال

المحتوى

جاك غوييه:
أديباً مستشرقاً

بقلم: فتحي الجميل

يُعَدُّ الكاتبُ الفرنسيُّ جاك غوييه مِثالًا مُهِمّاً على ما يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ "الاستِشْراقَ الأَدَبِيَّ". فالرَّجُلُ كادَ يَختَصُّ فِي كتابَةِ أدَبٍ فَرنْسيٍّ يَحكِي الْحَياةَ العَربيَّةَ فِي البِلادِ العرَبِيَّةِ. فَإِنَّكَ مَتَى نَظرْتَ في قائمَةِ الكُتُبِ الَّتِي أَلَّفَها، وَجدْتَها في مُعْظمِها تَتَعَلَّقُ بالْحياةِ فِي الْجزَائِرِ. وَمنْها رِوايَةُ "الْمُغامَرةُ الْمَهْرِيَّةُ" ("L'aventure méhariste") الّتِي نالَ بِها جائِزةَ أكادِيمِيَّةِ مَان Maine سنة 1991، وروايَةُ "سِرُّ الطّارقِيِّ الأبْيَض" ("Le Secret du Targui Blanc")، وروايةُ "مَدرسَةُ الرّمال" ("L'école des sables")، وتُضاف إليْها هذِهِ الْمجمُوعةُ مِنَ النّوادِرِ العَرَبيّةِ الّتِي عُنوانُها الأصْلِيُّ هوَ "خُفَّا بَشيرٍ، وَنَوادرُ أخْرَى" (Les Babouches de Bachir et autres farces).

فلِماذا الجزائرُ بالذّات؟ لأَنَّ الرَّجُلَ قدْ أقامَ بِها فَترةً طويلةً مُدَرِّساً في مَدارِسِها الفرنسيَّةِ وهوَ في سِنِيِّ شبابِه الأُولَى. ولَا رَيْبَ

أنّ تلك الإقامةَ قدْ تركَتْ في نفْسهِ أثراً عميقاً، فأَحَبَّ البلادَ وأحبَّ أهلَهَا وأحَبَّ الحياةَ فيهَا، فاسْتلهَمَ منْ تُراثِها الْحِكائِيِّ ومنْ حَياتِها اليَوْميّةِ الْمُعاصرةِ لكتابَةِ أدَبٍ لَا يَعْتَنِي بالضّرورة بِحَياةِ الفرنسيّينَ بالجزائِر إبان عَهْدِ الاستعمارِ، بلْ بالْحياةِ العربيّةِ فِي صَمِيمِهَا.

إنّ عنايَةَ جاك غوبيه قد انْصبَّتْ خصُوصاً على ما فِي الجزائِرِ العربيّة منْ تُراثٍ شفويٍّ حِكَائيٍّ يكشفُ عُمْقَ تفْكيرِ هؤُلاءِ النّاسِ وثرَاءَ حياتِهِمْ بالْحِكَمِ والْمَواعظِ صاغُوهَا في شَكلِ حكاياتٍ لَا تَخْلو مِنْ نفَسٍ عَجائِبِيٍّ، حَمَّلُوها منَ العِبَر ما لَا يَسَعُه تَجريدُ الفلسفَةِ الغَربيّةِ.

أمّا لِماذا تدُورُ مُعظَمُ أحداثِ هذهِ الحِكاياتِ والقِصَص في البيئةِ الصّحراويّةِ، فَلأنَّ الرّجُلَ مَفْتونٌ بالصّحراءِ العرَبيّةِ الجزائريّةِ فِتْنَةً ليْس بعْدَها فتنةٌ، فقدْ وَجَدَ فيها مِنَ الامتِدادِ ما لَمْ يَجِدْهُ في مُدُنِ فرنْسا، ووجَدَ فيها مِنْ بساطةِ الْحياةِ ما حَبّبَها إلَيْه. ولعَلّ الْمقدِّمَةَ القصيرةَ الّتي وَضَعَها لِهذهِ الْمجموعةِ منَ النَّوادِرِ خَيْرُ دليلٍ على موقفِه من الصَّحراءِ والحياةِ الصَّحراويّةِ. فقدْ وسَمَها بِها ("الصّحراء") تيَمُّناً، ووَصَفَ هذا البحْرَ الْمُمْتَدَّ من الصّخورِ والرّمال وَصْفَ الشُّعَراءِ الْمَفتُونينَ. لكنَّ افتِتانَ جاك غوبيه لَا يقتصرُ على الرّمالِ والحجارةِ، بلْ ما كان الرجلُ لِيُفْتَنَ بِالْمَكان لوْلَا فِتْنَتُهُ بِأهْلِ الْمَكانِ، وقد قالَ الشّاعرُ العربِيُّ قديماً:

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَلْنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

ولذلكَ يقولُ واصِلًا المكانَ بأهلِهِ "وقد أقامَ بِها أناسٌ مزَجُوا تاريخَهم بتَاريخِ الصَّحرَاءِ **الَّذي يرجِعُ إلى عهُودٍ طَويلةٍ غابرَةٍ فِي الماضِي**". فالصَّحراءُ العربيَّةُ عندَهُ ليْستْ مُجرَّدَ مكانٍ جميلٍ، بلْ هيَ فضاءٌ فعَلَ فيهِ الإنسانُ وتَجَذَّرَ فيهِ وأنْشأَ حَضارَةً، ليْس فيها مِنَ الْمُنجزاتِ الماديَةِ ما نَجِدُهُ فِي بلَادِ الغرْبِ لَا مَحالةَ، لكنَّ فيها منجزاتٍ فكريّةً وأخلاقيّةً قيميّةً عاليةً، لَا يَملِكُ هذا الْمُسْتَشْرِقُ الأديبُ إلَّا الإعجابَ بِها. وما الّذي يُمكِنُ أنْ يشْغَلَ الأديبَ والإنسانَ فِي جاك غوييه غيْرَ ما به يكُونُ الإنسانُ إنساناً؟

إنّ الرَّجُلَ يُعَلِّمُ زُملاءَهُ مِنْ أدَباءِ الغَرْبِ، ويُعلِّمُنا، أنّ الحضارةَ لا تُقاسُ بالتَّقَدُّمِ الْماديِّ والعلميِّ والتّقْنِيِّ وحْدَه، وأنّ الحكمةَ ليْستْ ضالَّةَ الفيلسوفِ والمثقَّفِ وحدَه، بلْ هي ضالَّةُ كُلِّ إنسانٍ عَرَفَ كيفَ يتأقْلمُ معَ الطَّبيعةِ، فخَضَعَ لِقوانينِها القَاسِيَةِ وصَنَعَ معَها قانُوناً يَضْمَنُ لهُ التعايُش معَها وفيهَا.

وقدْ وجَدَ جاك غوييه ما يَنْشُدُهُ، وكَشفَ سِرَّ الحياةِ الصّحراويّةِ فأحَبَّها، ولعَلَّهُ أحبَّها فاكْتشَفَ سِرَّها. ومَاذا يُمْكِنُ أنْ يكونَ السّرُّ الَّذي يكتشِفُهُ الأديبُ غيْرَ القصّةِ يقتَصُّ أثَرَها فيلْتَذُّ به، ثُمَّ يستلهِمُها فيُعيدُ صياغَتَها بِلُغَتِهِ؟ ومَا إعادَةُ صِياغَةِ النّوادِرِ العَربيّةِ الصَّحراويّةِ إلَّا سَعْيٌ إلَى تَعْريفِ الغَرْبِ بِهذِهِ الصَّحراءِ وأَهْلِهَا وَحِكْمَتِهِمْ " إنّ قراءةَ هذهِ الأقَاصيصِ، الّتي تناقلَتْها الأجيالُ مُشافَهةً، قدْ تَكونُ ما تَزالُ هِيَ الوسيلةُ الفُضْلَى لإدْراكِ هذِهِ الْحِكْمَةِ الشّعْبيّةِ الّتِي تُعَدُّ أُسَّ حَضارةِ الصَّحرَاءِ".

علَى أنَّ جاك غوييه لَا يُتَرجِمُ حكايةً كمَا قدْ يتَبادرُ إلَى الذّهنِ، بلْ يُعيدُها بِروحِهِ وأُسلُوبِه، ورُوحِ الفرنسيَّةِ الّتي يَكْتُبُ بِها. إنّه ضَرْبٌ مِنَ النَّسْجِ اللّطيفِ بَيْنَ السَّدَى العَرَبِيِّ واللُّحْمةِ الفَرَنسيّةِ، بيْن الفكرَةِ العربيّة والأسْلوبِ الفرَنْسيِّ. فها هِيَ تَعابيرُ الفرنسيّةِ الخاصّةُ الْمُعبِّرةُ عنِ الْحَركةِ باللّسان والأصواتِ "hop" والْمعبّرةُ عنِ الْمَوقفِ والانفعالِ "...Tiens, Bah" تَتَكَثَّفُ فِي النّصّ كَثَافَةً تُرْهِقُ المترجِمَ أحيَاناً، فيتَردَّدُ في كيْفيّة تَرْجَمَتِها. لكنّ فرنسيّةَ النّصّ لَا تُخْفِي تأثُّرَ الكاتبِ، فِي مَجالِ البِنْيَةِ القصصيّةِ، بِالحكايةِ الأصليّةِ بِما فيهَا مِنْ طابَعٍ شفويٍّ وَما فيها من تعَدُّدِ رُواةٍ. ويُمكنُ أنْ نتبَيَّنَ في نُصُوصهِ مُحَافَظةً علَى كثيرٍ منِ خَصائصِ جنْسٍ حِكَائِيٍّ عَرَبِيٍّ أصيلٍ هو جِنْسُ "النّادرة" كَمَا أسَّسَ لَها الأخْباريُّونَ العَرَبُ القُدامَى، وخُصوصاً أبو عثمانٍ عَمْرُو بْنُ بَحرٍ الملقّبُ بالْجاحِظ. فاحْتَفَظَ غوييه، مَثلًا، بالرّاوي وبِبِنْيَةِ التّضمينِ l'enchâssement (القصّة الإطَار والقِصّة المضمَّنة) وبِفَنِّ الْهَزْلِ والإضْحاكِ الّذي يُخْفِي جِدِّيَّةَ الموقفِ ولَذْعةَ النَّقْدِ. بلْ إنّ النّصّ، في نسِيجِهِ اللُّغوِيِّ، ثَرِيٌّ بالمفرداتِ العربيّةِ، سواءٌ منْها ما يُعَبِّرُ عنْ خصوصيّةِ الحياةِ الصّحراويّةِ مِمّا لَا يَجدُ لهُ في الفرنسيّة مقابِلًا أوْ ما يعَبِّرُ عن حقائقَ عامّةٍ تشتَرِكُ اللُّغاتُ في التّعبيرِ عنْها. ففي النّصّ تضمينٌ لِمُفْرداتٍ عَرَبِيَّةٍ أوْ مُعرَّبةٍ تتَمثَّلُ في أسْماءِ العُملاتِ "الدُّورُو" وأسْماءِ الْملابسِ "السّروال، البُرْنُسُ، الْجَلَّابيَّةُ، القَشَّابِيَّة، الغنْدُورَة" وأسْماءِ النّبات "الرَّتَم، الوَزّالُ" وأسْمَاءُ الكِائناتِ

اللّامَرْئيّةِ الْخُرافيّةِ "الجنّ، الغُول" وأسماءِ الحيواناتِ "الفَنَك، الضّبّ" وأسماء الرُّتَبِ الإداريّةِ والاجتماعيّةِ "الشّاوش، القاضي، الخليفة، الشَّيْخ" والأسماءِ الدّالّةِ على الْمِعْمارِ والْمَسْكَنِ "الصر، الخيمة، القُبّة". فلَمْ يَكْتَفِ الكاتبُ بنقْلِ أفكارِ النّاسِ وحِكَمِهِمْ بَلْ نَقَلَ أيْضاً لُغَتَهُمْ الّتي حملتْ أفكارَهم، لأنّه يعرِفُ أنّ اللّغة الفرنسيّة تَعْجِزُ عنْ تَرْجَمَةِ تلك المفرداتِ الصّحراويّةِ الخصُوصيّةِ الأصيلةِ.

إنّ الدّوَافعَ الّتي أدّتْ بجاك غوييه إلَى تَألِيفِ هذَا الْكِتابِ لَيْستْ دَوافِعَ إنْسانيّةً وَاستِشْراقيّةً وَأدبيّةً فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ أيضاً دوَافِعُ تَرْبَوِيّةٌ. فإذا علِمْنَا أنّ الرّجُلَ قدْ قَضَى حيَاتهُ مُدَرِّساً بالمدارِسِ الْجزائِرِيّةِ والفرنسيّةِ ثُمّ متَفَقِّداً (مُفَتِّشاً) عامّاً للتّربيَةِ والتّعليمِ في مدينته لومان (le Mans)، أدرَكْنا نزْعَتَهُ البيداغُوجِيّةَ في الكِتابةِ الّتِي تَسْعَى إلَى تعليمِ النّاشِئَةِ الفرنسيّينَ وهُمْ يُطالِعُونَ، يُعَلِّمُهُمْ بِالْحكايَةِ حِكْمةَ الشَّعْبِ الّذي عاشَ فِي الصّحرَاءِ وَتَعلّمَ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي مَدْرَسَةِ الْحياةِ. وَلَا رَيْبَ أنّ هذهِ الغَايَةَ النّبِيلةَ هِيَ مَا جَعَلَ هَذا الْكِتابَ يُخْتَارُ أَحَدَ أَفْضَلِ أربعِينَ كِتاباً مِنْ بَيْنِ أربعِ مئةِ كِتابٍ أَصْدَرَتْهَا دارُ "هاشيت Hachette" فِي سلسلة "هاشيت للشّبابِ".

ويُمْكِنُ أنْ نَخْتزِلَ الْحِكَمَ الّتِي تَنْطِقُ بِها هَذهِ النّوادِرُ العَربيّةُ فِي مَا يَلِي:

خُفّا بشيرٍ: تكشِفُ هذه النّادرةُ عَواقِبَ البُخلِ وتَسْخرُ من

البَخيلِ فتَدْفعُ إلَى التَّحلّي بالْجُود. فَبطلُ النّادرَةِ بَشيرٌ رجُلٌ بَخيلٌ مَسِيكٌ، يَكْنِزُ مَالَهُ ويُسِيءُ مُعامَلةَ أسْرتِهِ فَلا يُنْفِقُ الدِّرهَمَ إلّا بِحِسابٍ شَديدٍ. وَبَلَغَ به البُخلُ أنْ جَعَلَ نَفْسَهُ عُرْضةً لسُخرِيَةِ أهْلِ الْمدينَةِ. فَقَدْ كان يَلْبَسُ خُفّاً مَضَتْ عليْه عَشَراتُ السِّنينِ، كُلَّما بَلِيَ منْهُ جُزءٌ رَقّعَهُ، فصَارَ ضَخْمَ الْحجمِ ثَقيلَ الوَزْنِ. فلَمّا نَفَدَ صَبْرُ أفْرادِ أُسْرَتهِ، قرَّرُوا التَّخَلُّصَ منَ الْخُفَّيْنِ. فتَعدّدتِ الْمُحاولات لكنّها لَمْ تُجْدِ نفْعاً، بلْ أوقَعَتِ الرّجُلَ فِي مآزِقَ لَمْ يَحسَبْ لَها حساباً، فأفقدَتْهُ مالَهُ ومَسْكنَهُ واحْتِرَامَ النّاسِ، وأَدَّتْ إلَى خَرَابِ الْمَدينةِ كلِّهَا. فكانَ خُفّاهُ بِحَقٍّ خُفَّيْنِ مَنْحُوسَيْنِ عليْهِ وعلَى سائرِ أفْرادِ عَائِلَتِهِ. وليْستْ هذهِ الْمُبالَغةُ وهذا التّصعيدُ الْمُتواصِلُ فِي الأحْداثِ سِوَى ضَرْبٍ مِنَ السُّخريَةِ الْحكيمةِ الّتِي تُخيفُ سَامِعَ الْحكايَةِ وَقارِئَها فَتُحقِّقُ الْغايَةَ الأخلَاقيّةَ التّربويّةَ ويَتَحقَّقُ تَطهيرُ النّفْسِ مِنْ أدْرَانِ البُخْلِ وحُبِّ الْمالِ.

سَعيدٌ الصَّبِيُّ الشِّرِّيرُ: تُقَبّح النّادرةُ الإساءَةَ إلى الغَيْرِ وتَحُضُّ علَى إصْلاحِ الْخَطَإ. فتَحكِي قِصّةَ صَبِيٍّ شِرّيرٍ يُسِيءُ مُعامَلَةَ النّاسِ والْحيوانِ، فَيَمْسَخُهُ رئيسُ الْجِنِّ في صُورَةِ وَحْشٍ قَبِيحٍ. وَيُدْعَى الصّبِيُّ إلى البَحْثِ عن عَقاقِيرَ تُعيدُ إليْه صُورَتَهُ الإنْسانِيّةَ، فيَخُوضُ تَجرِبَةً في الصّحراءِ يُدْرِكُ خِلالَها سُوءَ أفْعالِهِ وَيَسْعَى إلَى تَدارُكِهَا بِفِعْلِ الْخيْرِ، فَيَخْسَرُ ما ذَهَبَ لأَجْلِهِ، لكنّه يتَمَكّنُ منْ مُداوَاةِ نفْسِهِ بِمُجرّدِ الإحْسانِ إلَى الْغيْرِ. فتُؤَكِّدُ هذهِ القِصّةُ أنّ استعادَةَ الإنْسانيّةِ تَنْبَعُ مِنْ الدَّاخِلِ.

عَلِيٌّ الأحدَبُ القَصير: تُنَفِّرُ النادرةُ منَ السُّخْريَةِ منَ الْغَيْرِ وتُشيرُ إلَى عَواقِبِهَا. فَتَنْقُلُ مَا أعْمَلَهُ عَليٌّ الأحْدَبُ مِنْ حِيَلٍ لِتأدِيبِ مَنْ يَسْخَرُ مِنْهُ. لكنّ هذا الرّجُلَ لا يَبْلُغُ حَدّ الانتقامِ، فيُنْقذُ خُصومَهُ منْ حَبْلِ الْمِشْنَقَةِ، ويكْسِبُ بِذكائِهِ وحِلْمِهِ حُبَّ النّاسِ.

الْمَنْصُورُ صانِعُ الذَّهَبِ: تُحذّرُ النّادرةُ منَ الْجَشَعِ والطَّمَعِ وتدْعو إلى القناعَةِ والرِّضَا بالْمُقَدَّرِ. فهْيَ تَرْوِي قِصّةَ رجُلٍ فقيرٍ بَلَغَ معْرِفةَ صُنْعِ الذّهَبِ مِنَ مَعادِنَ خَسِيسَةٍ، لكنّه واجَهَ جَشَعَ الْخَليفَةِ وكُلَّ أهْلِ الِمدينةِ، فَقَرّرَ الانْتِقَامَ مِنَ الْجَميعِ. وأَحَالَ حيَاةَ الْمدينةِ إلَى خَرَابٍ يَحْكِي مَآلَ الطَّمَعِ وَعِبَادةِ الذّهَبِ.

القاضي واللّصُّ والنَّخْلَة: تبيّنُ النّادرةُ عَواقِبَ الكَذِبِ والغِشِّ والغَدْرِ وتدْعُو إلى الأمَانةِ والصِّدْقِ. فتحْكي قصّةَ رجُلَيْنِ وجَدَا كِيساً منَ الذّهب، فطمِعَ أحدُهما في نيْلِ الْمالِ، وأعْمَلَ الْحيلةَ لذلِكَ، لكنّهُ وَقَعَ فِي شرِّ أعماله. وتحقّقَ العَدْلُ معَ ما فيهِ منْ شِدَّةٍ على الظّالِمِ.

إبراهيمُ وابنةُ الشَّيْخِ: تُبيّنُ هذه النّادرةُ عواقِبَ التَّحَيُّلِ وتدْعُو إلَى احْترَامِ الأعْرافِ والتّقَالِيدِ. وتَرْوِي قِصّةَ "شَيْخِ عُرْفٍ" شابٌّ يُحاوِلُ الزَّواجَ مِنْ حَبِيبتِهِ بإعمَالِ الْحِيلَةِ، فيُخالِفُ التّقاليدَ وهْوَ حَامِيهَا. لكِنَّ زوْجَتَهُ تُؤَدِّبُهُ بالْحيلةِ، فَيُصبِحُ رجُلًا كريماً يُكَفِّرُ عنْ أخْطائِهِ ويَتَعَلّمُ منْ دُرُوسِ الْحَياةِ.

الغولُ والبُستانِيُّ: تَسْخَرُ هذه النّادرةُ مِنَ السَّذاجَةِ وتَصديقِ

السَّحَرةِ والكُهَّانِ. وتَرْوِي حكايَةَ رَجُلٍ ساذَجٍ يُصَدِّقُ الْمُشَعْوِذينَ، فَيَقَعُ فِي حبَائِلِهِمْ.

إنّ كُلَّ هذهِ النّوادِرِ تَحُضُّ علَى مَكارِمِ الأخْلاقِ وتَدْعُو إلَى الصِّدْقِ والْجُودِ والأمَانةِ. لَكِنَّهَا تُعَلِّمُ بِطريقتَيْنِ: طريقةِ السّخريَةِ والإضحَاكِ فَتَشْرَحُ النّفْسَ وتُجْزِي الْوَقتَ الطّويلَ الّذي يَجِدُ أهْلُ الصّحراءِ أنْفُسَهُمْ فِيهِ بغَيْرِ عَمَلٍ، وخُصوصاً باللّيْلِ، وطريقَةِ الشّدَّةِ والقَسْوَةِ فِي تصويرِ الْمَآلِ فتُشَدِّدُ النّكيرَ عَلَى مَنْ يَخْرُجُ عَنِ الْعَادةِ والعُرْفِ والْخُلُقِ القَوِيمِ وتُرَهِبُهُ بِسُوءِ العِقابِ. وهي في كُلِّ ذلك تعَلِّمُ النَّاسَ وهُمْ يَسْمَرُونَ. فَلَمَّا نَقَلَهَا جاك غوييه إلى الفرنسيّةِ أصبَحَتْ تُعَلِّمُ النّاشِئةَ وَهُمْ يُطالِعُونَ. وَلَا رَيْبَ أنّ هذَا الْجَوَّ الشَّرْقِيَّ الْخُرافِيَّ وهذهِ الأحْداثَ الْعَجائبيّة الّتِي قدْ لا يَجِدُ لَها الغَرْبِيُّ مَثيلًا مِمّا يُؤَثّر في النّفسِ، فيعُودُ إلى حِكْمَةِ الشّرْقِ حَنِيناً إلَى بِلادٍ طالَمَا فَتَنَتْهُ وأثَارَتْ خيَالَهُ.

وإنّنا إذْ نُتَرْجِمُ هذا الْكتَابَ إلَى الْعَربيّةِ نكونُ قَدْ حَقَّقْنَا أُمْنِيَةً لِلْكاتِبِ فِي أنْ يَطّلِعَ القارِئُ العَربِيُّ علَى كتَابَاتِهِ، بَعْدَ أنْ نالَتْ كُتُبُهُ نَجاحاً لَدَى قُرّاءِ الفَرَنْسيّةِ، كما نُحَقِّقُ مَطْلَباً عَزِيزاً في تَدْوِينِ حكْمَةِ أجْدَادِنا وإنْ بترْجَمَةِ بَعْضِ ما استَلْهَمَهُ مِنْهَا كُتّابُ جِيرَانِنَا. ولَعَلّنَا أيْضاً نَرُدُّ للسّيدِ جاك غوييه جَميلًا على مَحَبّتِهِ لنا كَمَا رَدَّ هُوَ الْجميلَ لِحَياتِنَا العَرَبيّةِ الّتِي أحَبَّهَا فكَتَبَها.

الصَّحْرَاءُ

اِفْتَحْ كِتَابَ الْجُغْرَافِيَا أَوِ الأَطْلَسَ، وَأَمْعِنِ النَّظَرَ فِي خَرِيطَةِ إِفْرِيقِيَا.

سَتَجِدُ اسْماً تَتَرَابَطُ أَحْرُفُهُ بِخَطٍّ غَلِيظٍ: **الصَّحْرَاءَ**. إِنَّهَا مُجَسَّدَةٌ فِي رُقْعَةٍ مِنَ اللَّوْنِ عَرِيضَةٍ مُمْتَدَّةٍ عَلَى مِنْطَقَةٍ شَاسِعَةٍ مِنْ شَمَالِ إِفْرِيقِيَا.

إِنَّ أَكْبَرَ صَحْرَاءٍ فِي الْعَالَمِ هِيَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ مِنَ الصُّخُورِ وَالرِّمَالِ.

لَقَدْ زَحْزَحَتْ قُرُونٌ مِنَ الرِّيَاحِ تَكَدُّسَ الْكُثْبَانِ. وَقَدْ أَقَامَ بِهَا أُنَاسٌ مَزَجُوا تَارِيخَهُمْ بِتَارِيخِ الصَّحْرَاءِ **الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى عُهُودٍ طَوِيلَةٍ غَابِرَةٍ فِي الْمَاضِي**.

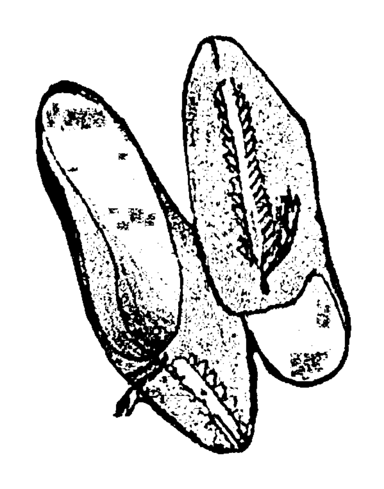
إِنَّ قِرَاءَةَ هَذِهِ الأَقَاصِيصِ، الَّتِي تَنَاقَلَتْهَا الأَجْيَالُ مُشَافَهَةً، قَدْ تَكُونُ مَا تَزَالُ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْفُضْلَى لإِدْرَاكِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ أُسَّ حَضَارَةِ **الصَّحْرَاءِ**.

جاك غُويِيه Jacques Gohier


فرنسا
إيطاليا
روما
إسبانيا
مدريد
بورتو
البرتغال
لشبونة
المحيط
الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
وهران
الجزائر
قسنطينة
تونس
تونس
الرباط
الدار البيضاء
تلمسان
المغرب
الوادي
مراكش
بشار
غرداية
الصحراء
الغربية
الصحراء الكبرى
ليبيا
الجزائر
تاسيلي الجزائرية
تانزروفت
الحجار
موريتانيا
أدرار
إيفوغا
مالي
النيجر

خُفَّا بَشِيرٍ

وَفِيهَا نَتَعَرَّفُ إلى رَجُلٍ بَلَغَتْ بِهِ شِدَّةُ الْبُخْلِ حَدَّ تَرْقِيعِ خُفَّيْهِ الْجِلْدِيَّيْنِ بِصِفَةٍ مُتواصِلَةٍ، وَنَرَى بَرَاعَةَ أُسْرَتِهِ الَّتِي تَسْعَى بِأَقْصَى مَا أُوتِيَتْ مِنْ جُهْدٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُمَا بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهَا مِنَ الْوَسَائِلِ... قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِهَا الشَّقَاءُ وَالْخَرَابُ.



لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَيْءٌ يَتَحَرَّكُ فِي الْمَدينَةِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَسْحَقُهَا شَمْسُ هَذَا الشَّهْرِ الصَّيْفِيِّ... كَانَتِ الأَزِقَّةُ الْمُتَعَرِّجَةُ ذَاتُ الْجُدْرَانِ الْمَطْلِيَّةِ بِالْجِيرِ مَهْجُورَةً. وَبَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى، تَرْتَسِمُ عَلَى الرَّمْلِ الَّذِي يَفْرِشُ الأَدِيمَ خُطَى شَبَحٍ أَسْوَدَ مُتَخَفٍّ... وَكَانَتْ حَوَانِيتُ قَمِيئَةٌ ذَاتُ أَبْوَابٍ حَدِيدِيَّةٍ تَصْطَفُّ عَلَى طُولِ الشَّارِعِ التِّجَارِيِّ الرَّئِيسِ... وَتَضُوعُ فِي الْهَوَاءِ الْمُلْتَهِبِ رَائِحَةٌ غَرِيبَةٌ لِعِطْرِ الْخَشَبِ وَالتَّوَابِلِ...

يَقَعُ دُكَّانُ بَشِيرٍ لِبَيْعِ التَّوَابِلِ بَيْنَ مَحَلِّ الْخَيَّاطِ وَكُشْكِ بَائِعِ الْخُرْدَوَاتِ. وَكَانَ يَفِيضُ بِبَضَائِعَ مُخْتَلِفَةِ الأَصْنَافِ: كَانَتِ الرُّفُوفُ تَنُوءُ تَحْتَ ثِقْلِ الْفُلْفُلِ الْمَطْحُونِ وَالطَّمَاطِمِ الْمُجَفَّفَةِ وَالشمارِ وَالْقِرْفَةِ وَالْكَمُّونِ وَالْفُلْفُلِ النَّاعِمِ... وَكَانتْ هُنَاكَ عُلَبٌ صَغِيرَةٌ مِنَ التَّنَكِ مَلِيئَةٌ بِالطِّيب الذي يُبَخَّرُ أَوِ الْبُذُورِ الَّتِي تُعَطَّرُ بِهَا عَجِينَةُ

الْخُبْزِ. وَتَتَدَلَّى مِنَ السَّقْفِ نَبَاتَاتٌ تُسْتَعْمَلُ لِصَبْغِ الصُّوفِ، وَنُضِدَتْ عَلَى الْمِنْضَدَةِ صَنَادِيقُ خَشَبِيَّةٌ نُظِمَتْ فِيهَا الْقَرْدُوفَةُ وَالْحُلْبَة اللَّتَانِ تُعْرَفُ أَفْضَالُهُمَا الطِّبِّيَّةُ، وَالسِّوَاكُ الَّذِي يُبَيِّضُ الأَسْنَانَ، أَوْ أَعْشَابٌ تُضَافُ إِلَى الْقَهْوَةِ وَالشَّايِ. وَلِبُلُوغِ دَاخِلِ الدُّكَّانِ يَنْبَغِي تَخَطِّي بِضْعَةَ عَشَرَ كِيساً مِنْ مُخْتَلَفِ الأَحْجَامِ تَحْتَوِي عَلَى بُقُولٍ جَافَّةٍ وَأَوْرَاقٍ مُجَفَّفَةٍ وَحُبُوبٍ أَوْ بُذُورٍ.

كَانَ بَشِيرٌ يَغْفُو جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ قَصِيرٍ يَحْرُسُ مَدْخَلَ مَحَلِّهِ الْفَوْضَوِيِّ، وَقَدْ أَرَاحَ ذِرَاعاً عَلَى كِيسِ الْفَاصُولِيَا وَأُخْرَى عَلَى كِيسِ الْعَدَسِ. وَكَانَ رَأْسُهُ الَّذِي يَنْحَنِي عَلَى كِرْشِهِ الضَّخْمَةِ يَعْلُو وَيَنْخَفِضُ بِحَرَكَاتٍ رَتِيبَةٍ عَلَى إِيقَاعِ تَنَفُّسِهِ... وَيَنْبَغِي الْقَوْلُ إِنَّ أَحَداً لَمْ يَكُنْ يَمُرُّ بِذَلِكَ الْمَكَانِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ، وَإِنَّ الْحَرَارَةَ كَانَتْ لَا تُطَاقُ فِي بِدَايَةِ الظُّهْرِ هَذِهِ.

هَلْ كَانَ بَشِيرٌ سَعِيداً بِأَنْ يَكُونَ تَاجِرَ تَوَابِلَ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ. كَانَتْ تِجَارَتُهُ نَافِقَةً، وَكَانَ ذَلِكَ يُوَفِّرُ لَهُ، مَهْمَا كَانَتِ الأَعْوَامُ خَصِبَةً أَوْ عِجَافاً، مَا يَكْفِيهِ لِيُقِيمَ أَوْدَ زَوْجَتِهِ زَيْنَبَ وَابْنِهِ مَحْمُودٍ وَأَخِيهِ مُخْتَارٍ وَابْنِ عَمِّهِ الشَّابِّ حَامِدٍ... لَكِنْ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ إِقَامَةِ الأَوْدِ. فَقَدْ كَانَ مُتَعوِّداً عَلَى تَدْقِيقِ الْحِسَابِ مُدْرِكاً قِيمَةَ النُّقُودِ. وَكَانَ يَقُولُ:

- يَنْبَغِي أَنْ نَعِيشَ وَنَأْكُلَ وَنَلْبَسَ. لَا مِرَاءَ فِي هَذَا. لَكِنْ لِمَاذَا نَخْتَارُ الْغَالِيَ وَالنَّفِيسَ؟ لَا نَفْعَ فِي ذَلِكَ.

وَكَانَ لِذَلِكَ يُنَفِّذُ بِنَفْسِهِ مَبَادِئَهُ بِكُلِّ صَرَامَةٍ، وَهْوَ مُقْتَنِعٌ بِأَنَّ نَهْجَهُ سَيُقْنِعُ كُلَّ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ بِضَرُورَةِ التَّدْبِيرِ فِي النَّفَقَاتِ.

وَكانَ لِذَلِكَ لَا يُغَيِّرُ جِلْبَابَهُ إِلَّا حينَ يَتَخَرَّقُ، وَلَا يَشْتَرِي سِرْوَالًا جَدِيداً إِلَّا حِينَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ تَرْقِيعُ سِرْوَالِهِ الْقَدِيمِ. وَكانَ خُفَّاهُ الْعَتِيقَانِ قَدْ أَصْبَحَا مَضْرَبَ الْأَمْثَالِ فِي مُلَازَمَةِ الاقْتصَادِ وَالشُّحِّ. كَانَ يَلْبَسُهُمَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ عاماً. وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ، لَا زَوْجَتُهُ وَلَا ابْنُهُ وَلَا أَخُوهُ وَلَا ابْنُ عَمِّهِ، حَمْلَهُ عَلَى تَغْيِيرِهِمَا.

كُلَّما ظَهَرَ فَتْقٌ أَوِ اهْتَرَأَ النَّعْلُ اهْتِراءً شَدِيداً، كَانَ "يُرَقِّعُهُمَا" بِنَفْسِهِ. فَيُلْصِقُ قِطْعَةً هُنَا وَسَيْراً مِنَ الْجِلْدِ هُنَاكَ، حَتَّى أَصْبَحَ خُفَّاهُ ضَخْمَيْنِ مَعِيبَيْنِ أَكْبَرَ مِنْ مَقَاسِهِ. وَحِينَ يَخْرُجُ بَشِيرٌ عِنْدَ حُلُولِ الْمَسَاءِ مِنْ دُكَّانِهِ إِلَى بَيْتِهِ، كانَ سُكَّانُ "الْقَصْرِ" جَمِيعاً يَلْتَفِتُونَ وَقَدْ فُوجِئُوا بِرُؤْيَةِ هَذَا التَّاجِرِ الْجَرِيءِ وَهْوَ يَمْشِي مُخْتَالًا بِخُفَّيْنِ مُنْتَفِخَيْنِ كَالْقِرَبِ فِي قَدَمَيْهِ. أَمَّا بَشِيرٌ فَكانَ يَبْتَسِمُ فِي غِبْطَةٍ وَهْوَ مُقْتَنِعٌ بِأَنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ مِثَالًا لِلرَّجُلِ الْمُقْتَصِدِ وَالْحِكْمَةِ الَّتِي تَسِيرُ عَلَى قَدَمَيْهَا.

فِي بَيْتِهِ، كانَتْ زَوْجَتُهُ تَلُومُهُ عَلَى بُخْلِهِ، فَزَوْجُ الْخُفِّ لَا يُكَلِّفُ مَالًا كَثيراً على أَيَّةِ حَالٍ. لَكِنَّ بشيراً يُجِيبُ بِالْقَوْلِ إِنَّ بَاطِنَ قَدَمِهِ حَسَّاسَةٌ، وإِنَّهُ لَا يَجِدُ الرَّاحَةَ إِلَّا فِي خُفَّيْهِ الْعَتِيقَيْنِ.

حينَ يَتَشَكَّلُ ثَقْبٌ آخَرُ، يُلْصِقُ بَشيرٌ قِطْعَةً جَديدَةً. ويَظَلُّ الْخُفَّانِ يَنْتَفِخَانِ انْتِفَاخاً مُفْرِطاً. وَحِينَ يَعْبُرُ الزُّقَاقَ الَّذِي يَفْصِلُهُ عَنْ

دُكَّانِهِ، لَمْ يَكُنِ الْمَارَّةُ يَسْتَطِيعُونَ الامْتِناعَ عَنِ الضَّحِكِ. أَمَّا بَشيرٌ فَقَدَ كانَ سَعِيداً بِالْعَيْشِ فِي مَدينَةٍ يُظْهِرُ أَهْلُهَا قَدْراً كَبيراً مِنَ الْفرَحِ وَالْمُتعَةِ بِالالْتِقاءِ بِهِ.

وَأَمْسَى النَّاسُ جَميعاً يَعْرِفُونَ "خُفَّيْ بَشِيرٍ". وَأَصْبَحَا فِيمَا بَعْدُ مَحَلَّ كُلِّ مُقارَنَةٍ حِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ شَيْءٍ شَدِيدِ الضَّخامَةِ أَوْ مُثِيرٍ لِلإِزْعاجِ.

وَقَدْ وَجَدَ فيهِمَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ أُسْرَةِ بَشِيرٍ أَمْراً مُنَغِّصاً. فَقَدْ كَانَ الْخَجَلُ يَغْمُرُهُمْ. وَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا وَيَضَعُوا حَدّاً لِهَذِهِ الْمَهْزَلَةِ. فَقَرَّرَ الْأَخُ مُخْتارٌ سَرِقَةَ الْخُفَّيْنِ الشَّهِيرَيْنِ. وَاغْتَنَمَ فُرْصَةَ صَلاةِ الْجُمُعَةِ لِتَنْفِيذِ خُطَّتِهِ. وَكَانَ بَشِيرٌ، كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، يَتْرُكُ خُفَّيْهِ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ. وَلَمْ يَجِدْ مُخْتَارٌ، الَّذِي كَانَ مَصْحُوباً بِكِيسٍ كَبِيرٍ، أَيَّ عَنَاءٍ فِي أَخْذِهِمَا. فَنَظَرَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ. وَهُوبْ... اِخْتَفَى الْخُفَّانِ فِي الْكِيسِ.

فُوجِئَتْ زَوْجَةُ مُخْتَارٍ بِرُؤْيَةِ زَوْجِهَا وَهْوَ يَعُودُ بِكِيسٍ ضَخْمٍ عَلَى كَاهِلِهِ. فَاغْتَنَمَتْ، بِمَا فِيهَا مِنْ فُضُولٍ فِطْرِيٍّ، فُرصَةَ غِيَابِهِ لِلنَّظَرِ فِي دَاخِلِ الْكِيسِ. وَأَطْلَقَتْ صَيْحَةَ رُعْبٍ وَهْيَ تَكْتَشِفُ الْخُفَّيْنِ الْقَذِرَيْنِ. وَسَارَعَتْ بِإِلْقَائِهِمَا فِي الزُّقَاقِ بِتَقَزُّزٍ. وَكانَ ذَلِكَ كَفِيلًا بِإِثارَةِ الضَّوْضَاءِ. فَقَدْ كانَ مِنَ النَّادِرِ رُؤْيَةُ الْخُفَّيْنِ الشَّهِيرَيْنِ من دُونِ صَاحِبِهِمَا.

بَحَثَ بَشيرٌ عِنْدَ انْتِهَاءِ الصَّلَاةِ عَنْ خُفَّيْهِ الأَثِيرَيْنِ بِلَا طَائِلٍ. . . لَقَدْ سُرِقَ خُفَّاهُ. فَانْدَفَعَ حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ إِلَى الْقَاضِي شَاكِياً.

– أَتُدْرِكُ مَا وَقَعَ لِي؟ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ سُرِقَتْ حَبَّةُ فاصُوليا مِنْ دُكَّانِي، لَكِنَّ خُفَّايَ سُرِقَا مِنْ أَمَامِ حَرَمِ الْجَامِعِ. عَلَيْكَ أَنْ تَعْثُرَ عَلَيْهِمَا.

كانَ الْقَاضِي يَوَدُّ أَنْ يَضْحَكَ، لَكِنَّهُ اسْتَمَعَ إِلَى الشَّكْوَى بِجِدٍّ. وَبَعَثَ بِكَثِيرٍ مِنَ الشُّرَطِ لِلتَّحْقِيقِ فِي الْقَضِيَّةِ. ولم يَدُمْ ذَلِكَ طَوِيلًا. . .

حَوَّلَ رِجالُ الشُّرْطَةِ مَوْضُوعَ الْجُنْحَةِ إِلَى دَارِ الْقَضَاءِ حَيْثُ دُعِيَ بَشِيرٌ إِلَى الْحُضُورِ بِغَيْرِ تَأْخِيرٍ.

قَالَ لَهُ الْقَاضِي الَّذِي لَمْ يَكُنْ رَاغِباً البَتَّةَ فِي الضَّحِكِ:

– كَيْفَ تَسْخَرُ مِنَ الْقَضَاءِ؟ تَدَّعِي أَنَّ خُفَّيْكَ قَدْ سُرِقَا مِنْكَ. وَأَنْتَ قَدْ رَمَيْتَ بِهِمَا فِي وَسَطِ الطَّرِيقِ. عَلَيْكَ أَنْ تَدْفَعَ غَرَامَةً قَدْرُهَا أَلْفُ دِينَارٍ لِرِجَالِ الشُّرْطَةِ لِمَا سَبَّبْتَ لَهُمْ مِنْ مَشَاقَّ.

وَسُقِطَ فِي يَدِ بَشِيرٍ. كَانَ يُفَضِّلُ تَلَقِّيَ أَلْفَ ضَرْبَةٍ بِالْعَصَا! أَلْفُ دِينَارٍ! . . . كانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَذَا الْمَبْلَغِ عَشَرَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَخْفَافِ. لَكِنَّهُ دَفَعَ الْمَالَ وَاسْتَطَاعَ الْحِفَاظَ عَلَى مَدَارِكِهِ العقْلِيَّةِ كُلِّهَا.

تَفَحَّصَ الْخُفَّيْنِ طَوِيلًا. هَا هُوَ الْجِلْدُ قَدْ تَخَرَّقَ عِنْدَ طَرَفِ

الْكَعْبِ. فَأَضَافَ إِلَيْهِ قِطْعَةً أُخْرَى مِنَ الْجِلْدِ. ثُمَّ نَامَ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ خُفَّيْهِ حِذْوَ حَصِيرَةِ الْحَلْفَاءِ.

فِي اللَّيْلِ، نَهَضَتْ زَوْجَتُهُ زَيْنَبُ دُونَ أَنْ تُثِيرَ جلَبَةً. فَهْيَ الْمُكَلَّفَةُ هذِهِ الْمَرَّةَ بِالْعَمَلِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْخُفَّيْنِ الشَّنِيعَيْنِ. أَخَذَتْهُمَا وخَرَجَتْ مِنَ الْبَيْتِ عَلى أَطْرافِ أَصَابِعِهَا.

كانَ كُلُّ شَيْءٍ هَادِئاً فِي الْخَارِجِ. وَكانَ نَسِيمٌ عَلِيلٌ قَدْ حَلَّ مَحَلَّ حَرَارَةِ النَّهارِ الْحَارِقَةِ. كَان علَيْهَا أنْ تَتَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ. فَاتَّجَهَتْ إلَى غَابةِ النَّخِيلِ فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وهُناكَ أَلْقَتْ بِالْخُفَّيْنِ الضَّخْمَيْنِ فِي أَعْمَاقِ الْبِئْرِ قائلَةً: "لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ هَذهِ الْمَرَّةَ اسْتِرْجَاعَهُمَا". ثُمَّ تَسَلَّلَتْ إِلَى بَيْتِهَا رَأْساً وكَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يكُنْ.

عِنْدَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، قَبْلَ اسْتِيقَاظِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، يَشْرَعُ الفَلاحُونَ فِي الْعَمَلِ بِغابَةِ النَّخيلِ. كَانُوا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ مَتْحِ الْمَاءِ الَّذِي تَحتَاجُ إلَيْهِ الأعْمَالُ الفِلاحِيَّةُ بِواسِطَةِ رَقَّاصٍ مُثَبَّتٍ فَوْقَ الْبِئْرِ، وَيَجْذِبُ أوَّلُ الْبُسْتَانِيِّينَ الْحَبْلَ لإنزالِ السَّلَّةِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْخُوصِ الْمَجْدولِ. وحينَ تَمْتَلِئُ ماءً، ترْتَفِعُ هَذهِ السَّلَّةُ دُونَ كَبيرِ عَناءٍ بِفَضْلِ الثِّقَلِ الْمُعَدِّلِ. وَينْصَبُّ الْمَاءُ في الْحَوْضِ ثُمَّ فِي السَّوَاقِي عَلَى طُولِ الْمُرَبَّعاتِ الصَّغيرَةِ الْمَحْفُورَةِ فِي الرَّمْلِ. ثُمَّ تُحرَّرُ في نِهَايَةِ الْمَطافِ وَتنْسَابُ بِرِفْقٍ بيْنَ الْخُضَرِ الَّتِي تَنتَظِرُ رِيَّهَا اليَوْمِيَّ. لكِنْ... ما الّذِي حَدَثَ هذا الصَّبَاحَ؟ لَمْ يَكَدِ الْبُسْتَانِيُّ يَمْلأُ السَّطْلَ مَرتيْنِ أوْ ثَلاثاً حَتَّى رأى بِأُمِّ عيْنِهِ النَّباتاتِ تَسْوَدُّ، وَتَميلُ على الرَّمْلِ النَّدِيِّ. فَصَرخَ البُسْتَانِيُّ مُنْدفعاً نَحْوَ الْبِئْرِ:

- إنَّهُ الْمَاءُ... لَا شَكَّ في أنَّ ذلكَ بِسَبَبِ الْمَاءِ.

حينَ أطَلَّ منْ حافَّةِ البِئرِ، لَمْ تُفاجِئْهُ رُؤْيَةُ خُفَّيْنِ ضَخمَيْنِ مُسْتَقِرَّيْنِ في عُمْقِ الْماءِ. كانَ جِلْدُهُمَا يُسَرِّبُ خيُوطاً غَريبَةً مائِلَةً إلَى الاخْضِرارِ مَا تَنْفَكُّ تَتَفسَّخُ. وَجَدَّ البُستانِيُّ بواسِطةِ مِحْجَنٍ فِي إخْرَاجِ الْخُفَّيْنِ اللَّذيْنِ طُرِحَا بعْدَ ذلكَ علَى الرَّملِ كَقِنْدِيلَيْ بَحْرٍ هُلَامِيَّيْنِ.

لَمْ تكُنْ هُناكَ حاجَةٌ إلَى إجْرَاءِ تَحقِيقٍ. فَقَدْ تَعَرَّفَ البُستَانِيُّ إلى خُفَّي بَشِيرٍ. فَأسرَعَ إلَى الْقاضِي وطَالَبَ بِتعْوِيضٍ عَنْ كلِّ ما خَسِرَ مِنْ مَحَاصيلَ.

واسْتُدْعِيَ بشيرٌ مرَّةً أخْرَى إلَى دارِ الْقَضاءِ. وقالَ لَهُ الْقَاضِي غَاضِباً:

- أَتَسْخَرُ مِنَ الْقَضاءِ؟ لَقَدْ أرَدْتَ مرَّة أخرَى التَّخَلُّص مِنْ خُفَّيْكَ، فَرَمَيْتَ بِهِمَا فِي الْبِئْرِ مُسَمِّماً بذلِكَ الْمَاءَ الْمُخَصَّصَ لِلزِّراعَةِ. إنَّهُ جُرْمٌ لَا يُغْتَفَرُ. عليْكَ أنْ تَدْفَعَ أرْبَعَةَ آلَافِ دِينارٍ لِلْبُستانِيِّ الَّذِي خَسِرَ كلَّ مَحاصيلِهِ.

غَمْغَمَ بشيرٌ قائِلًا:

- أربعةُ آلافِ دينارٍ؟ كُنْتُ أُفَضِّلُ قَضاءَ أَرْبعَةِ آلافِ يَوْمٍ فِي السِّجْنِ... إنَّهُ الْمَبْلغُ الَّذِي أُحَصِّلُهُ خلالَ عامٍ مِنْ تِجَارةِ التَّوابِلِ.

فَرَدَّ الْقَاضي قَائِلًا:

- قَدْ يَكونُ ذلك صحِيحاً. لكنَّهُ الْمَبلَغُ الَّذي خَسِرَهُ الْبُسْتانِيُّ بِسَبَبِ أَعْمَالِكَ الطَّائِشةِ.

أَكَّدَتْ حِسَاباتُ بَشيرٍ أَنَّهُ كانَ يَسْتَطيعُ شِرَاءَ أَرْبَعين زَوْجاً مِنَ الأخْفَافِ بِكُلِّ تلكَ النُّقودِ. لَكِنَّهُ دَفَعَ ماَ عَلَيهِ مِنْ غَرامَةٍ. وَحينَ بَلَغَ منْزِلَهُ، جَفَّفَ الْخُفَّيْنِ ثُمّ أضَافَ بَعْضَ الْقِطَعِ الْجِلْدِيَّةِ لِأَنَّ الْماءَ قَدْ فَكَّ أَوْصَالَ النَّعْلَيْنِ. ونامَ في نِهايةِ الْمَطَافِ بَعْدَ أنْ صَفَّ الْخُفَّيْنِ بِحِذَاءِ حَصِيرَةِ الْحَلْفَاءِ.

أَصْبَحَ التَّخَلُّصُ مِنَ النَّعْلَيْنِ مَشْغَلَ العَائِلةِ أَكْثَرَ من أيِّ وقْتٍ آخَرَ، لِأَنَّهُمَا قد جَلَبَا لَهَا الْخَرَابَ. فَحَانَ دَوْرُ مَحْمُودٍ لِلتَّخَلُّصِ منْ خُفَّيْ أَبِيهِ الْبَغِيضَيْنِ. نَهَضَ الْفَتَى لَيْلًا دونَ أنْ يُحْدِثَ جَلَبَةً. وأَخَذَ الْخُفَّيْنِ الْمَنْحُوسَيْنِ وغادَرَ الْمَنْزِلَ. وَاتَّجَهَ إلَى الْحَديقَةِ الْعَامَّةِ حَيْثُ قَرَّرَ أنْ يُوَارِيَهُمَا الثَّرَى.

شَرَعَ فِي حَفْرِ جُبٍّ كَبِيرٍ فِي الرِّمالِ. وكانَ الْعَمَلُ يَتَقَدَّمُ عَلى قَدَمٍ وَسَاقٍ. وَكانَتْ عَشْرُ دَقائِقَ كَافِيَةً لِبُلُوغِ الْعُمْقِ الْمَرْجُوِّ. فَوَضَعَ الْخُفَّيْنِ فِي الْجُبِّ. لكِنَّهُ ما كَادَ يَبْدَأُ فِي رَدْمِهِمَا حَتَّى سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامٍ. إِنَّهُ شَخْصٌ قَادِمٌ. فأَسْرَعَ بِالاخْتِبَاءِ وَراءَ نَخْلةٍ... لَمْ يَرَ الْقَاضِي فِي الْعَتَمَةِ الْجُبَّ الَّذِي يَقْطَعُ طَرِيقَهُ. فَهَوَى بِكُلِّ ثِقْلِهِ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَكُسِرَتْ سَاقُهُ.

مِنَ الْغَدِ، اِسْتَدْعَى الْقَاضِي الْمُمَدَّدُ عَلى سَرِيرِ الْأَلَمِ بَشيراً وقالَ لهُ وهْوَ يُقَطِّبُ أَلَماً:

- لقد أرَدْتَ الثَّأرَ مِنّي يا بَشيرُ لأنّي حَكَمْتُ عَلَيْكَ بِدَفْعِ غَرَامَةٍ لِلْفَلَّاحِ. وَحَفَرْتَ لِي جُبّاً لِقَتْلِي. لَكِنَّ جُرْمَكَ يَحْمِلُ بَصْمَتَكَ. سَيُكَلِّفُكَ ذلكَ ثَمَناً بَاهِظاً.

دُهِشَ بَشيرٌ وقالَ:

- أُؤَكِّدُ لَكَ يا قَاضِيَ الْقُضَاةِ أنّي لَمْ أَصْنَعْ شيْئاً. إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَتَّهِمُونَنِي بِهِ.

فَغَضِبَ الْقَاضِي غَضَباً أثَارَ أوْجَاعَهُ. وَقَالَ:

- لقَدْ سَعَيْتَ إلَى قَتْلِي. وهَا أنْتَ ذَا تَسْخَرُ مِنِّي. أَحْكُمُ عَلَيْكَ بِأنْ تَدْفَعَ لِي كُلَّ نَفَقَاتِي وأنْ تَكْفُلَ أُسْرَتِي كُلَّهَا حَتَّى أُشْفَى شِفَاءً تَامّاً. وإنَّكَ لَمَحْظُوظٌ. فلَيْسَ لَدَيَّ سِوَى زَوْجَتَيْنِ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ ابْناً. وقَدْ دَقَّقْتُ الْحِسَابَ. وَسَوْفَ يُكَلِّفُكَ ذَلِكَ عَشَرَةَ آلَافِ دينارٍ تَدْفَعُهَا لِي عَاجِلًا.

عَجَزَ بشيرٌ عَنِ الْكَلامِ. كانَ يُفَضِّلُ قَطْعَ عَشَرَةِ آلافِ كِيلُومِتْرٍ فِي الصَّحْرَاءِ دُونَ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ. لكِنَّهُ لَمْ يَحْسُبْ هذهِ الْمَرَّةَ عَدَدَ أَزْوَاجِ الأَخْفافِ الَّتِي كانَ يَسْتطيعُ شِرَاءَهَا بِمِثْلِ هَذَا الْمَبْلَغِ. لَا يُمَثِّلُ هَذَا الْمَبْلَغُ سِوَى ثَمَنِ مَنْزِلِهِ. فَاضْطُرَّ إلَى بَيْعِهِ وَأقَامَ مَعَ كُلِّ أفْرادِ أُسْرَتِهِ فِي دُكَّانِهِ.

وحانَ هذهِ الْمَرَّةَ دَوْرُ ابْنِ عمِّهِ الشَّابِّ حَامِدٍ لِيُبَرْهِنَ عَلَى حُسْنِ تَصَرُّفِهِ. كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْخُفَّيْنِ الْكَرِيهَيْنِ. فَقَرَّرَ بعدَ طُولِ تَفْكِيرٍ أَنْ يُلْقِيَ بِهِمَا في أَبْعَدِ مَكانٍ مُمْكِنٍ، فِي الْمَكانِ

الْوَحِيدِ الَّذِي يُهْلَكُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ... في الصَّحْراءِ... رَاقَتْهُ الْفِكْرَةُ. فَاسْتَعَارَ جَمَلًا وَسَرَقَ الْخُفَّيْنِ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَيَمَّمَ شَطْرَ الْجَنُوبِ.

عِنْدَ وُصولِهِ إِلَى سَفْحِ جِبَالٍ شَاهِقَةٍ، أَبْصَرَ عَشَرَاتٍ مِنَ الآبَارِ الْمَحْفُورَةِ وَقَرْيَةً تَقَعُ على مَبْعَدَةٍ مِنْهَا. فَقَصَدَ رَاعِياً كانَ مَارّاً مِنْ هُناكَ، وَسَأَلَهُ عَنْ وَظَائِفِ تِلْكَ الآبَارِ. فَقَالَ:

- إِنَّهَا تُفْضِي إِلَى أَنْفَاقٍ تُسَمَّى "فُقَارَاتٍ" يَتجَمَعُ فيهَا ماءُ الْوَادِي وَتُؤَدِّي كُلُّهَا إلى حَوْضٍ قُرْبَ الْقَرْيَةِ تَنْطَلِقُ مِنْهُ عِدَّةُ سَوَاقٍ تَشُقُّ الْبَساتينَ وَالْبُيُوتَ، وَبِهَا نَستطيعُ رِيَّ الْمَغرُوساتِ وَسَقْيَ الْحَيَوَانَاتِ وَإِيصَالَ الْمَاءِ إِلَى مَنَازِلِنا.

- وَما وَظِيفَةُ الآبَارِ؟

- إنّها تُمَكِّنُ النَّاسَ مِنَ النُّزُولِ تَحْتَ سَطْحِ الأَرْضِ لِصِيانَةِ الأَنْفَاقِ.

شكَرَ حَامِدٌ الرَّاعِيَ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ تَفْسيرَاتٍ وَانْتَظَرَ رَحيلَهُ. أَصْبَحَ يَعْرِفُ الآنَ كَيْفَ سَيَتَخَلَّصُ مِنْ خُفَّيْ بَشيرٍ إِلَى الأَبَدِ. فاقتَرَبَ مِنْ إِحْدَى الآبَارِ بِتُؤَدَةٍ. وَأَسْقَطَ الْخُفَّيْنِ الْجِلْدِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَفَيَا كَقارِبَيْ صَيْدٍ فِي تَيَّارِ الْمَاءِ فِي عَتَمَةِ الأَنْفَاقِ.

لَنْ تكُونَ هُناكَ مُشْكِلَةٌ هذه الْمَرَّةَ...

رَوَى حَامِدٌ، عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، قِصَّةَ رِحْلَتِهِ لِزَيْنَبَ

وَمَحْمُودٍ وَمُخْتارٍ، فَتَنَفَّسُوا الصُّعَدَاءَ دُونَ شُعُورٍ بِـالشَّفَقَةِ على بَشيرٍ الْمِسْكِينِ الَّذي كان ما يَزالُ يَبْحَثُ عَنْ خُفَّيْهِ الثَّمِينَيْنِ فِي كَامِلِ أَرْجاءِ دُكَّانِهِ.

طَفَا الْخُفَّانِ طَويلًا فِي الْحَوْضِ. وحينَ وَصَلَا إلى نِهَايةِ رِحْلَتِهِمَا فِي الأَنْفَاقِ، تَوَقَّفَا عندَ الصَّخْرَةِ الضَّخْمَةِ الْمَنْقُورَةِ الَّتِي تُوَزِّعُ الْمَاءَ إلَى الْقَرْيَةِ. . . وَسَدَّا ثُقُوبَ هذا النِّظامِ الْعَبْقَرِيِّ الضَّرُورِيِّ لِحَياةِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ. لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَاءٌ لِرِيِّ النَّخيلِ وَالأشْجارِ الْمُثْمِرَةِ، وَلَا لِسَقْيِ الإبِلِ وَالْخِرْفانِ، وَلَا لِلطَّبْخِ وَغَسْلِ الثِّيَابِ. لا يَتَذَكَّرُ الْقَرَوِيُّونَ فِي تارِيخِهِمْ حَدَثاً مُمَاثِلًا لِهَذَا. واسْتُقْدِمَ "مُنَظِّفُو الأَحْوَاضِ". فَاهْتَدَوْا بعْدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ مِنَ الْبَحْثِ فِي الظُّلُماتِ وَالرُّطُوبةِ إلَى مَا سَدَّ الْفُتُحاتِ. وَتَكَبَّدُوا الْمَشَاقَّ كُلَّهَا لإِخْراجِ مَا ظَنُّوهُ قِرَباً. ولكِنَّهُمْ تَعَرَّفُوا فِي وَضَحِ النَّهَارِ عَلى أَشْهَرِ خُفَّيْنِ فِي الْمِنْطقةِ. فَعَمَّ الْغَضَبُ، وَتَوَجَّهَ وَفْدٌ منَ الصَّحْرَاوِيِّينَ إلَى مَدينةِ بَشيرٍ حَامِلِينَ الْقِطْعَتَيْنِ دَلِيلَيْنِ أمَامَ الْقَاضي. وَاتُّهِمَ بَشيرٌ بالسَّعْيِ إلَى إبادَةِ الْقَرْيَةِ بِأَسْرِهَا جُوعاً وَعَطَشاً.

قالَ الْقاضي لِبَشيرٍ:

– لَقَدْ جاوَزْتَ يَا بشيرُ بِفِعْلَتِكَ هذه كلَّ حَدٍّ. لقدْ عَرَّضْتَ عَائِلَاتٍ بِأَسْرِهَا لِلْخَطَرِ. فَتَلِفَتْ مَحَاصيلُهُمْ وَهَدَّدَتْهُمُ الْمَجَاعَةُ. مَا اقْتَرَفْتَهُ فِي حَقِّ النّاسِ لا يُغْتَفَرُ. وَلِذلكَ أَحْكُمُ عَلَيْكَ بِأَنْ تُعْطِيَ كُلَّ ما تَمْلِكُ فِي دُكّانِ التَّوَابِلِ غِذاءً لأهْلِ هَذهِ الْقَرْيَةِ.

أحَسَّ بشيرٌ وهو يَسمَعُ هذا الْحُكْمَ بِخَوَرٍ فِي قِوَاهُ. كان مُحَطَّماً... فَلَمْ يَعُدْ يَمْلِكُ شَرْوَى نَقِيرٍ. وقالَ بَاكِياً:

- يا لَلْظُّلْم! لَمْ يَجْلِبْ لِي خُفَّايَ غَيْرَ الشَّقَاءِ وَالْخرابِ. وقد قرَّرْتُ الآنَ أنْ أُفَارِقَهُمَا. لكِنِّي لا أُريدُ رَمْيَهُمَا في الطَّريقِ ولَا في الْبِئْرِ وَلَا فِي الْجُبِّ وَلَا فِي "الْفُقَارَةِ". سَأُحْرِقُهُمَا... لتَأْكُلَهُمَا النِّيرَانُ.

وَسُرْعَانَ مَا قَرَنَ قَوْلًا بِفِعْلٍ. فَوضَعَ خُفَّيْهِ وَسَطَ دُكَّانِهِ الّذي كان قَدْ أُخْلِيَ سَلَفاً. وحينَ أشْعَلَ عُودُ الثِّقَابِ النّارَ في الْخُفَّيْنِ، انْدَلَعَتْ فِيهِمَا انْدِلَاعاً. فَاقْتَلَعَ الانْفِجَارُ الْعَظِيمُ سَقْفَ الدُّكَّانِ. وتَصَاعدَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ بِسُرْعَةٍ أَمْتَاراً نَحْوَ السَّمَاءِ مُطْلِقَةً عَجَاجَةً مِنَ الدُّخانِ الأَسْوَدِ. وَوَجَدَ بَشيرٌ بِالكَادِ الوَقْتَ الكَافِيَ لِلْفِرَارِ. وَابْتَعَدَ قَدْرَ الإمْكَانِ. وَاشْتَعَلَتِ البُيُوتُ الْمُجَاوِرةُ لِدُكَّانِ التَّوابلِ هِيَ أَيْضاً. وَامْتَدَّ الْحَرِيقُ في بِضْعِ دَقَائِقَ إِلَى الْمَدينةِ بَأَكْمَلِهَا. وَتَعَالَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ وهْيَ تُصْدِرُ فَرْقَعَةً عظيمَةً. فكانَ عَلَى أهْلِ الْمَدِينَةِ كُلِّهِمْ أنْ يَهْرُبُوا.

أَتَتِ النّيرانُ علَى الْحَديقَةِ العَامَّةِ وَغابَةِ النّخيلِ وَدَارِ الْقَضَاءِ. وَشَاهَدَ بشيرٌ وكُلُّ السُّكَّانِ ذلكَ عَاجِزِينَ أَمَام هَيَجَانِ هَذَا النَّحسِ. ودونَ أيَّةِ مُحَاكَمَةٍ، غُرِّبَ بَشيرٌ عَنِ الْمَدِينَةِ. لَكِنْ، حِينَ غَادَرَ هَؤلَاءِ الَّذِينَ يُطَارِدُونَهُ وَهَذَا الْحَيَّ الَّذي عَفَا وانْدَثَرَ، كانَتِ ابْتِسَامَةٌ تُضيءُ مُحَيَّاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ... فَقَدْ تَخَلَّصَ أخِيراً مِنْ خُفَّيْهِ الْمَنْحُوسَيْنِ.

سَعِيدٌ الصَّبِيُّ الشِّرِّيرُ

وَفِيهَا نَرَى فَتًى شِرِّيراً يُمْسَخُ وَحْشاً مُخِيفاً، ثُمَّ يَسْعَى إِلَى اسْتِعَادَةِ شَكْلِهِ الْبَشَرِيِّ بِوَاسِطَةِ السِّحْرِ.



كانَ سِعيدٌ - الصّبِيُّ الصَّغِيرُ - يُثيرُ يَأْسَ أَبَوَيْهِ مِنْهُ. فَلَمْ يكُنْ يُفكِّرُ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظفَارِهِ إلَّا فِي الإسَاءَةِ إلَى كُلِّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ. وَكانَتِ الرَّكَلاتُ وَاللَّكَمَاتُ الَّتِي يُوَزِّعُهَا عَلَى كُلِّ أَخٍ مِنْ إخْوَتِهِ وَالْمَقالِبُ الْمَاكِرَةُ الَّتِي يُدَبِّرُهَا لِأَصْحَابِهِ، لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ... كان يُلْقِي بِالأَحْذِيَةِ فِي الآبَارِ، ويُمَزِّقُ الْبَرَانِسَ، وَيَثْقُبُ جُيُوبَ السَّرَاوِيلِ... وَكُلَّمَا كَبُرَ أَكْثَرَ، ازْدَادَتْ أَعْمَالُهُ الشِّرِّيرَةُ سُوءاً.

كان يَجِدُ فِي أَعْمَالِهِ الشِّرِّيرةِ مُتْعَةً حَقِيقِيَّةً. وَلَمْ تَكُنِ التَّحْذيرَاتُ وَالدَّعواتُ إلَى الْهُدُوءِ وَالْعُقُوبَاتُ تَنْفَعُ فِي شَيْءٍ. فَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَطْلُبُ صُحْبَتَهُ. وأصْبَحَ النَّاسُ يَتَجَنَّبُونَهُ.

وأمْسَى سَعيدٌ الْوَحِيدُ يُمارِسُ أعْمَالَهُ الشِّرِّيرَةَ عَلَى ضَحايَا جُدُدٍ. فَكَانَ يَفْقَأُ أَعْيُنَ الطُّيُورِ وَيقْطَعُ أرْجُلَ السَّحالي وَيَبْتُرُ أعْضاءَ الْيَرَابِيعِ وَالْفَنَكِ...

كانَتِ الْحَيَوَاناتُ الْجَريحَةُ تَلجَأُ أحْياناً إلَى كُثْبانِ الرِّمالِ. فَبَلَغَتْ قَسْوَةُ الصَّبِيِّ الصَّغيرِ مَسَامِعَ الأرْواحِ الشِّرِّيرةِ الَّتِي تَسْكُنُ الصَّحراءَ، وَالّتِي تُسَمَّى "الْجِنّ". وكانَ علَيْهِمْ أنْ يَضَعُوا حَدّاً لأفْعالِهِ. فقَرَّرَ مَلِكُهُمْ، وَهُوَ سَاحِرٌ مِنَ السَّحَرَةِ، أنْ يَتَدَخَّلَ لِمُعاقَبَةِ الصَّبِيِّ القَاسِي.

وَذاتَ صَباحٍ جَمِيلٍ...

أَطْلَقَ سَعيدٌ صَيْحَةَ فَزَعٍ وَهُوَ يُبْصِرُ نَفْسَهُ فِي الْمِرْآةِ... يَا اللهُ... مَا الَّذِي حَلَّ بِهِ؟... كانَ نَابَانِ كَبِيرَانِ مُعَقَّفَانِ قَدْ بَرَزَا مِنْ فَمِهِ، وَمِسَلَّاتُ قُنْفُذٍ قدْ زُرِعَتْ فِي رَأْسِهِ، وَأصْبَحَ جِلْدُهُ أَشْبَهَ بِجِلْدِ الضَّفَادِعِ، وَنَمَتْ فِي مَوْضِعِ أَظَفَارِهِ مَخَالِبُ حَادَّةٌ.

شَعَرَ بِالرُّعْبِ، فَظَلَّ مُخْتَبِئاً طيلَةَ يَوْمَيْنِ فِي جَرَّةٍ. كانَ يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ، وَهُوَ يَرَى مَخَالِبَ يَدَيْهِ وَجِلْدَهُ الْخَشِنَ. لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ ظَلَّ عَلى حَالِهِ وَلَمْ يَطْرَأْ عَليْهِ أَيُّ تَغْيِيرٍ. لَقَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَعِيشَ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ الْمُنَفِّرَةِ.

وحِينَ اكْتَشَفَ وَالدَاهُ أَنَّهُ قَدْ مُسِخَ وَحْشاً مُخِيفاً يُشْبِهُ غُولَ الْخُرَافَاتِ، شَعَرَا بالرُّعْبِ ويَئِسَا مِنْ شِفَائِهِ يَأساً أَشَدَّ مِنْ يَأْسِهِ هُوَ. وَلَمَّا شَعَرَا بِالعَجْزِ أَمَامَ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ، أَسْرَعُوا بِاللُّجُوءِ إلَى سَاحِرِ الْقَرْيَةِ الَّذِي لَمْ يُوَاجِهْ فِي حَيَاتِهِ أَذًى سِحْرِيّاً مِثْلَ هَذَا الأذى. فَرَاجَعَ بَعْضَ أَقْدَمِ كُتُبِ السِّحْرِ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَعْثُرْ على الْحَلِّ إلَّا فِي آخِرِ صَفْحَةٍ مِنْ كِتابِ الأقْدارِ.

"لِكَيْ تَسْتَعِيدَ الضَّحِيَّةُ الْمَسْحُورَةُ هَيْئَتَهَا الأَصْلِيَّةَ، عَلَيْهَا أَنْ تُرَكِّبَ وَصْفَةً خَاصَّةً جِدّاً تَتَكَوَّنُ مِنْ أَغْصَانِ الرَّتَمِ وَزَهْرِ الْفَرْبَيُونِ وَبَيْضَةِ النَّعَامَةِ وَتَمْرِ الدَّقْلِ... لَكِنْ يَجِبُ تَجْمِيعُ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ مِنْ قِبَلِ الْمُصَابِ بِلَعْنَةِ مَلِكِ الْجِنِّ نَفْسِهِ..."

والْتَفَتَ السَّاحِرُ إِلَى الْقَرَوِيَّيْنِ قَائِلًا:

- عَلَى سَعِيدٍ أَنْ يُنْجِزَ الْمُهِمَّةَ بِنَفْسِهِ. وإِذَا أَحْضَرَ مَعَهُ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ الأَرْبَعَةَ عِنْدَ عَوْدَتِهِ، فَإِنِّي أَسْتَطِيعُ إِعْدادَ الدَّوَاءِ بِنَفْسِي.

عادَ الأَمَلُ إِلَى الْوالِدَيْنِ. وَدُونَ أَنْ يُضَيِّعَا مَزِيداً مِنَ الوَقْتِ، بَادَرَا بِإِخْبَارِ ابْنِهِمَا الْمِسْكِينِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ.

شَعَرَ سَعِيدٌ بِارْتِيَاحٍ كَبِيرٍ يَجتاحُهُ وهْوَ يُفَكِّرُ فِي أَنَّهُ سَيُصبِحُ عَمَّا قَرِيبٍ شَبِيهاً بِأَيِّ طِفْلٍ آخَرَ فِي سِنِّهِ، وأَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَنْ يَكُونَ سِوَى كَابُوسٍ بَعِيدٍ. وَقَرَّرَ أَنْ يُسْرِعَ بِالذَّهَابِ. وَلَمْ يَحْمِلْ مَعَهُ غَيْرَ بَعْضِ الزَّادِ. وَتَوَغَّلَ فِي الصَّحْرَاءِ.

اِلْتَقَى فِي طَرِيقِهِ الْيَرْبُوعَ. فَسَأَلَهُ عَنِ الْكُثْبَانِ الّتِي يَسْتطِيعُ أَنْ يَجِدَ فِيهَا زَهْرَةَ الْفَرْبَيُونِ... فقالَ لَهُ:

- كَيْفَ تُرِيدُنِي أَنْ أَقُودَكَ إِلَيْهَا؟ لَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَطَعْتَ ذَيْلِي. وَلِذَلِكَ لَا أَستَطِيعُ الذَّهابَ بَعِيداً.

ثُمَّ الْتَقَى فَنَكاً. فَسَأَلَهُ عَنِ الرِّمَالِ الّتِي يَسْتطِيعُ أَنْ يَعْثُرَ فِيهَا عَلَى بَيْضَةِ النَّعَامَةِ. فقالَ:

- كَيْفَ تُرِيدُنِي أَنْ أُسَاعِدَكَ؟ لَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَطَعْتَ أُذُنِي. وَلِذَلِكَ لَا أستَطِيعُ التَّنَقُّلَ مِنْ مَكانٍ إِلَى آخَرَ.

ثُمَّ مَرَّ عُصَيْفِيرٌ رَبِيعِيٌّ أصْفَرُ الْبَطْنِ أَخْضَرُ الظَّهْرِ. فَسَأَلَهُ إِنْ كَانَ بِإمكَانِهِ جَنْيُ تَمْرَةِ الدَّقَلِ... فقالَ لهُ:

- كَيْفَ تُرِيدُنِي أَنْ أَطِيرَ؟ لَقَدَ سَبَقَ أَنْ قَطَعْتَ جَنَاحَيَّ. فَحَكَمْتَ عَلَيَّ بِأَنْ أَنُطَّ فِي مَكَانِي نَطّاً.

وَالْتَقَى فِي نِهايَةِ الْمَطَافِ ضَبّاً، وَهُوَ جِرْذَوْنُ النَّخِيلِ، بِذَيْلِهِ الْعَرِيضِ الْمُدَبَّبِ. فَسَأَلَهُ إِنْ كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَتَسلَّقَ شَجَرَةً وَيُحْضِرَ لَهُ أَغْصَانَ الرَّتَمِ. فأجابَه قائِلًا:

- كَيْفَ تُرِيدُنِي أَنْ أَزْحَفَ؟ لَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَتَرْتَ سَاقَيَّ. وَلِذَلِكَ لَا أَسْتَطِيعُ تَسَلُّقَ الأَشْجَارِ.

شَعَرَ سَعِيدٌ عِنْدَئِذٍ بِالذَّنْبِ. فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُتِمَّ مَهَمَّتَهُ بِمُفْرَدِهِ. فَحَفَرَ فِي الرِّمَالِ حُفَراً كَثِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى بَيْضَةِ النَّعامَةِ. وَتَسَلَّقَ عَشَرَاتِ النَّخْلاتِ لِيَجْمَعَ بَعْضَ تَمْرِ الدَّقَلِ. وَقَطَعَ عَشَرَاتِ الْكِيلُومِتْرَاتِ فِي الصَّحْرَاءِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ أَزْهَارَ الْفَرْبَيُونِ. وَقَضَى عِدَّةَ أَيَّامٍ وَهْوَ يَجْمَعُ بِكُلِّ دِقَّةٍ أَغْصَانَ الرَّتَمِ بِمَخَالِبِهِ...

وَأَخِيراً عَادَ أَدراجَهُ مُتْعَباً مُنْهَكاً مُضْنًى، وَهْوَ يَحْمِلُ كُنُوزَهُ النَّفِيسَةَ. كَانَ يَشْعُرُ بِبَالِغِ الأَسَفِ وَالنَّدَمِ. لَقَدْ عَضَّهُ أَخِيراً الْجُوعُ وَأصَابَهُ حَرُّ النَّهارِ وَقَرُّ اللَّيْلِ. وَشَعَرَ بِوَطْأَةِ الْوِحْدَةِ. كَانَتْ مُسَاعَدَةُ الْحَيَوَانَاتِ لِتُقَدِّمَ لَهُ خِدْمَةً جَلِيلَةً جِدّاً...

مَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِغَزَالَةٍ جَائِعَةٍ، فَرَجَتْهُ أَنْ يُطْعِمَهَا مِنْ جُوعٍ. فَأَشْفَقَ سَعِيدٌ عَلَيْهَا، وَقالَ فِي نَفْسِهِ: "سَتَبْقَى لَدَيَّ ثَلاثَةُ عَنَاصِرَ أُخْرَى، وَسَتَكُونُ كَافِيَةً لإِعْدَادِ الْوَصْفَةِ".

وَمَدَّ لَهَا أَزْهَارَ الْفَرْبَيُونِ الَّتِي يَحْمِلُهَا.

وَرَأَى فِي مَكَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ ثَعْلَباً مِسْكِيناً يَسِيرُ بِمَشَقَّةٍ لِأَنَّ سَاقَهُ مَكْسُورَةٌ. فَأَشْفَقَ سَعِيدٌ عَلَيْهِ، وَصَنَعَ لَهُ مِنْ أَغْصَانِ الرَّتَمِ ضِمَادَةً لِجَبْرِ الْعَظْمِ الْمَكْسُورِ. وَقالَ فِي نَفْسِهِ: "حَسَنٌ. لَقَدْ بَقِيَ لَدَيَّ عُنْصُرانِ، وَسَيَكونَانِ كَافِيَيْنِ لِتَحْضِيرِ العَقَّارِ".

وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ كَثِيبٍ مِنَ الْكُثْبَانِ، وَجَدَ نَفْسَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ جَمَلٍ كانَ فِي حَالَةٍ مُزْرِيَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَضَعْ فِي فَمِهِ شَيْئاً مَنَ الْعُشْبِ مُنْذُ أُسْبُوعٍ عَلَى الأَقَلِّ. فَأَشْفَقَ سَعيدٌ عَلَيْهِ وَوَهَبَهُ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنَ التَّمْرِ. "بَقِيَتْ لَدَيَّ البَيْضَةُ، سَتَكُونُ نَاجِعَةً جِدّاً فِي شِفَائِي".

وَالْتَقَى، قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى الْقَرْيَةِ، عَائِلَةً بَدَوِيَّةً فَقِيرَةً. وَكانَ الأَبُ وَالأُمُّ يَنْتَحِبَانِ لأَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا يَمْلِكَانِ مَا يَسُدُّ رَمَقَ أَبْنَائِهِمَا. فَأَعْطَاهُمَا سَعِيدٌ، دُونَ تَفْكِيرٍ، الْبَيْضَةَ الَّتِي بَقِيَتْ لَدَيْهِ. فَأَعَدَّا بِهَا عِجَّةً تَكْفِي لإِطْعَامِ الْعَائِلَةِ بِأَسْرِهَا.

وَهَكَذَا عَادَ الصَّبِيُّ إِلَى مَنْزِلِهِ صِفْرَ الْيَدَيْنِ. وحِينَ مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْ السَّاحِرِ، قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ جَمَعَ، مُنْذُ بِضْعِ سَاعَاتٍ، كُلَّ الْعَناصِرِ فِي جِرَابِهِ، لَكِنَّهُ وَهَبَهَا كُلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

فَقَالَ السَّاحِرُ بِكُلِّ تَبْجِيلٍ:

- تَأَكَّدْ يَا سَعيدٌ أَنِّي لَسْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَتَمٍ أَوْ فَرْبَيُونٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ بَيْضٍ لِمُسَاعَدَتِكَ. إِنَّ قَلْبَكَ هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْفِيَكَ. وَقَدْ أَبَنْتَ أَنَّ بِقَلْبِكَ قَدْراً مِنَ الرَّحْمَةِ وَأَنَّكَ تَسْتطِيعُ التَّخْفِيفَ عَلَى مَنْ يُعَانِي. لَقَدْ بَرْهَنْتَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَى الْجَرْحَى وَالْجَوْعَى وَالْمَسَاكِينِ. لَقَدْ تَخَلَّصْتَ مِنَ الشَّرِّ. وَلَمْ يَعُدِ الْخُبْثُ يَسْكُنُ قَلْبَكَ. لَا نَفْعَ مِنْ مُعَالَجَتِكَ لأَنَّكَ قَدْ عَثَرْتَ عَلَى الدَّوَاءِ بِمُفْرَدِكَ. فَلَا تَبْتَئِسْ، سَتَعُودُ إِلَى هَيْئَتِكَ الطَّبِيعِيَّةِ.

شَكَرَ سَعيدٌ السَّاحِرَ وعَادَ إِلَى بَيْتِهِ. ومَا كَادَ يَتَخَطَّى الْعَتَبَةَ حَتَّى رَأَى وَالِدَيْهِ يسْتَقْبِلَانِهِ بِابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ. لَقَدْ عَادَ جِلْدُهُ لَيِّناً وَاسْتَعَادَتْ أَسْنَانُهُ طُولَهَا وَشَكْلَهَا "العَادِيَّيْنِ". وَظَهَرَتْ خُصُلَاتُ شَعْرِهِ عَلَى رَأْسِهِ. وَسَقَطَتْ مَخَالِبُهُ وَعَوَّضَتْهَا الأَظْفَارُ...

فَرِحَ سَعيدٌ فَرَحاً جُنُونِيّاً. وَاسْتَعَادَ مَكَانَتَهُ فِي الْمَدْرَسَةِ وَفِي القَرْيَةِ. وَلَمْ يَرَ النَّاسُ صَبِيّاً أَشَدَّ مِنْهُ بِرّاً وَلَا أَكْثَرَ لُطْفاً.

عَلِيٌّ الأَحْدَبُ الْقَصِيرُ

وَفِيهَا نَرَى رَجُلًا قَصِيراً أَحْدَبَ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ أَذْنَبَ فِي حَقِّهِ وَأَساءَ إِلَيْهِ، وَيُدَبِّرُ مَقالِبَ مُضْحِكَةً لِكُلِّ مَنْ سَخِرَ مِنْهُ.



زَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا يُسَمَّى عَلِيّاً كَانَ يَسْكُنُ قَرْيَةَ "غدَامِسَ"[1]، وَكانَ يَعْمَلُ خَيّاطاً.

كانَتْ قَامَتُهُ القَصِيرَةُ وَظَهْرُهُ الْمُعْوَجُ الَّذِي تَعْلُوهُ حَدَبَةٌ يُضْفِيَانِ عَلَيْهِ مَسْحَةً مُضْحِكَةً. فكَانَ الْقَرَوِيُّونَ يُلَقِّبُونَهُ "بِالأَحْدَبِ الْقَصِيرِ". فَيَحُزُّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ كَثِيراً. كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَكُونَ كَسَائِرِ النَّاسِ، وَأَنْ يَنْطَلِقَ، حِينَ يُرْخِي اللَّيْلُ سُدُولَهُ، بَاحِثاً عَنْ أَصْدِقَاءَ يُسَامِرُهُمْ فَيَشْرَبُ الشَّايَ أَوِ القَهْوَةَ مَعَهُمْ. لَكِنَّهُ ظَلَّ وَحِيداً دَوْماً...

كَانَ يَنْكَبُّ طِيلَةَ النَّهَارِ عَلَى طَاوِلَةِ الْعَمَلِ يُفَصِّلُ السَّرَاوِيلَ وَيَخِيطُ القَشَّابِيَّاتِ[2]. وَكانَ يَخْشَى مُلاقَاةَ زَبَائِنِهِ لأَنَّهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ

(1) "غدامس": مدينة تقع في الشرق الليبي قريبًا من الحدود التونسية [المترجمان].

(2) "القَشَّابِيَّةُ": لباس شتويّ يشبه القميص الطويل وله طربوشٌ، يخفي معظم البدن، يتّخذ غالبًا من الصوف [م].

عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنْ هَيْئَتِهِ. كانَ يَسْتَشْعِرُ شَفَقَتَهُم الزَّائِفَةَ وَضَحِكَاتِهِم الْمُزْدَرِيَةَ الْمَكْتُومَةَ. لَكِنَّهُ تَرَبَّى عَلى عَدَمِ إِظْهَارِ أَلَمِهِ أَوْ غَضَبِهِ. فَكانَ يَرُدُّ بِابْتِسَامَةٍ مُغْتَصَبَةٍ وَيَنْطِقُ بَعْضَ الْكلِمَاتِ اللَّطِيفَةِ، مُظْهِراً بِذلِكَ دَوْماً رُوحَهُ الْمَرِحَةَ.

لَكِنَّ مَا يُثِيرُهُ أَكْثَرَ هوَ تَصَرُّفاتُ بَقِيَّةِ تُجَّارِ الْقَرْيَةِ. كَانُوا يَلْتَقُونَ بِهِ كُلَّ يَوْم. وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَا يَسْتَنْكِفُونَ، وَهُمْ يَمُرُّونَ مِنْ أَمَامِ دُكَانِهِ، مِنْ إِفْشاءِ السَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّلَفُّظِ بِكَلِمَاتٍ مُؤْذِيَةٍ.

كانَ تاجِرُ التَّوَابِلِ يَقْتَرِحُ عَلَيْهِ الصُّعُودَ على عُلَبِ الْمُصَبَّرَاتِ "لِيَغْنَمَ بَعْضَ الطُّولِ"... وَيَقْتَرِحُ الْخَبَّازُ عَلَيْهِ أَكْلَ الْخُبْزِ لِيُصبِحَ "أَكْثَرَ اسْتِقَامَةً مِنْ خُبْزِهِ"... وَيُعْطِيهِ الْجَزّارُ قُرُونَ البَقَرِ كَيْ "يَسْتَطِيعَ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ قَبْضَتَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ"... وَيَنْصَحُهُ صَاحِبُ الْمَقْهى بِأَنْ يَشْرَبَ الْمَزِيدَ مِنَ الْقَهْوَةِ "لأَنَّ هَذا ضَرُورِيٌّ لِلصَّبْرِ عَلى الْعَمَلِ الْمُضاعَفِ الّذِي يُنْجِزُهُ بِنِصْفِ جَسَدٍ"...

ذَاتَ مَسَاءٍ، وَبَيْنَمَا هُوَ عَائِدٌ إِلَى بَيْتِهِ، تَلَقَّى لِلْمَرَّةِ الأَلْفِ عِبَارَاتِ الازْدِرَاءِ نَفْسَهَا. فَقَرَّرَ أَنْ يَثْأَرَ لِنَفْسِهِ.

مِنَ الْغَدِ، وَعَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ، دَخَلَ الْمَقْهى. وَأَكَّدَ لِصَاحِبِهِ ضَاحِكاً أَنَّهُ فِي حاجَةٍ إِلَى ثَلاثَةِ لِتْرَاتٍ مِنَ الْقَهْوَةِ عَلَى الأَقَلِّ لِيُصْبِحَ أَضْخَمَ. وَلَمَّا كَانَ الزَّبُونَ الْوَحِيدَ فِي الْمَقْهَى، فَقَدْ شَرِبَ فِنْجَاناً ثُمَّ اثْنَيْنِ ثُمَّ ثَلاثَةً. وَعِنْدَ احْتِسَاءِ الْفِنْجَانِ الرَّابِعِ، وَضَعَ يَدَهُ

عَلَى رَقَبَتِهِ فجْأَةً، وَأَطْلَقَ صَيْحَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ مُخْتَنِقَتَيْنِ، وَوَقَعَ عَلى قَفَاهُ مُجِيلًا عَيْنَيْهِ الْجَاحِظَتَيْنِ... وَلَمْ يُحَرِّكْ سَاكِناً.

جُنَّ جُنُونُ صَاحِبِ الْمَقْهَى. وَانْحَنَى عَلَى الأَحْدَبِ الْقَصِيرِ الَّذِي حَبَسَ أَنْفَاسَهُ. فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ... مَاتَ بِسَبَبِ قَهْوَتِهِ **هُوَ**. يَا لَلْعَارِ. يَا لَلْخِزْيِ. لَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ إِلَى مَقْهَاهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَمُوتَ مِيتَةَ عَلِيٍّ. وَخَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ... لَقَدْ خَرَجَ تَاجِرُ التَّوابِلِ الَّذِي يَمْلِكُ الدّكَانَ الْمُقَابِلَ لِلتَّوِّ. فَأَلْقَى صَاحِبُ الْمَقْهى نَظْرَةً إِلَى الشَّارِعِ... ذَاتَ الْيَمِينِ... وَذاتَ الشِّمَالِ... فَلَمْ يَرَ أَحَداً. فَحَمَلَ الأَحْدَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَهُ إِلَى دُكَّانِ التَّوَابِلِ وَجَرَّهُ إِلَى مَا تَحْتَ مِنْضَدَةِ الْحِسَابِ. ثُمَّ وَضَعَ فِي جَانِبِ فَمِهِ وَرَقَةَ نَعْنَاعٍ. وَعَادَ أَدْرَاجَهُ إِلَى مَحَلِّهِ.

عَادَ تاجِرُ التّوَابِلِ بَعْدَ غِيابٍ قَصيرٍ إِلَى دُكَّانِهِ، فَأَبْصَرَ جَسَدَ الأَحْدَبِ الْقَصيرِ مُسَجًّى تَحْتَ مِنْضَدَةِ الْحِسَابِ. فَانْحَنَى عَلى الْخَيّاطِ الّذِي كانَ يَحْبِسُ أَنْفَاسَهُ، ورَأَى وَرَقَةَ النَّعْنَاعِ تَبْرُزُ مِنْ فَمِهِ. فَظَنَّهُ مَيّتاً... يَا لَلْمَهَانَةِ! لَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ إِلَى مَحَلِّهِ خَوْفاً منْ أَنْ يَمُوتَ مِيتَةَ عَلِيٍّ. عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً... لَمْ يَرَ أَحَداً فِي الْخارِجِ... لَا يَمِيناً وَلَا شِمَالًا. فَحَمَلَ تَاجِرُ التّوَابِلِ الْجُثَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ وأَخَذَهَا إِلَى دُكَّانِ الْخَبّازِ وَهْوَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ الدُّكَّانَ خَالٍ. وَتَرَكَهَا هُناكَ. وقَبْلَ أَنْ يَفِرَّ هارِباً، لَمْ يَنْسَ أَنْ يَضَعَ قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ فِي فَمِ عَلِيٍّ.

عادَ الْخَبّازُ بعْدَ غِيابٍ قَصيرٍ إِلَى دُكَّانِهِ، فأَبْصَرَ جَسَدَ

الأحْدَبِ القَصيرِ مُمَدَّداً وَسَطَ الدُّكَّانِ. فانْحَنَى عَلَيْهِ وَرَأى قِطْعَةَ الْخُبْزِ فِي فَمِهِ. وظَنَّ أنَّهُ مَيِّتٌ... بِسَبَبِ خُبْزِهِ **هُوَ**. يَا لَهَا مِنْ فَضِيحَةٍ!... لنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ لِشِرَاءِ الْخُبْزِ مِنْهُ خَوْفاً مِنَ التَّسَمُّمِ. فَحَمَلَهُ عَلَى كَتِفِهِ كَمَا تَعَوَّدَ على حَمْلِ كِيسِ طَحِينٍ، وَذَهَبَ لِيَضَعَهُ عِنْدَ الْجَزّار علَى بُعْدِ أَمْتارٍ مِنْ هُناكَ، وَحَرِصَ عَلى وَضْعِ قِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ فِي فَمِهِ...

عَادَ الْجَزّارُ بَعْدَ غَيْبَةٍ قَصيرَةٍ إلَى دُكّانِهِ، وَأَبْصَرَ الخيّاطَ القَصيرَ الْمِسْكينَ مُشْبَكَ الذِّرَاعَيْنِ وفي فَمِهِ قِطْعَةُ لَحْمٍ... فظَنَّ أنّهُ اخْتَنَقَ عنْدَ أكْلِ قِطْعَةِ اللَّحْمِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْهُ. وكَان عَلَيْهِ أنْ يُسارِعَ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ الْجُثَّةِ. لَكِنْ أَيْنَ يَضَعُهَا؟ لِمَ لا يَدْفِنُهَا فِي الْكُثْبانِ الرّمْلِيَّةِ؟ وَضَعَهُ فِي كِيسٍ كانَ بِقُرْبِهِ، وَحَمَلَهُ سائِراً وَالْحِيطانَ دُونَ أَنْ يَجِدَ الْوَقْتَ الْكَافِيَ لِيَخْلَعَ مِيدَعَتَهُ الْمُلَطَّخَةَ بِالدّمِ...

كانَ الْخيّاطُ القَابِعُ فِي الكِيسِ الْمَصْنوعِ مِنَ الكَتّانِ السّميكِ يكْتُمُ ضَحِكَهُ. لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ ضَحِكَ فِي حَياتِهِ مِثْلَ ذَلكَ الضّحِكِ. وكانَ ما يَزالُ يَتَخَيَّلُ وُجوهَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أنّهُ مَيِّتٌ وَقَدِ ارْتسَمَ عَلَيْهَا الْهَلَعُ... وَعَسُرَ عَلَيْهِ الاحْتِفاظُ بِجِدِّيَّتِهِ...

كانَ الْقَاضِي فِي ذلكَ الْوَقْتِ يَتَجَوَّلُ جَوْلَتَهُ الْمُعْتَادَةَ فِي شَوَارِعِ "غدَامِسَ"، حِينَ صَدَمَهُ الْجَزّارُ صَدْمَةً مُفاجِئَةً كادَتْ أنْ تُسْقِطَهُ أرْضاً. وَغَمْغَمَ الْجَزّارُ بِبعْضِ عِباراتِ الاعْتِذارِ. فَقَطَّبَ القاضِي حَاجِبَيْهِ، وقالَ:

- لِماذَا يَبْدُو عَلَيْكَ هَذا الشُّحُوبُ الشَّديدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَمْضِي مُسْرِعاً؟ ماذا تَحْمِلُ فِي هَذا الْكِيسِ؟... هَيَّا... اِفْتَحْهُ.

وَاضْطُرَّ الْجزّارُ إلَى الانْصياعِ لِلأَمْرِ.

كانَ دَمُ اللّحْمِ قَدَ سَالَ علَى وَجْهِ الخيّاطِ القَصيرِ الْمُمَدَّدِ في قَعْرِ الْكِيسِ. وكان الدَّمُ يُلَطِّخُ أَيْضاً مِيدَعَةَ الْجَزّارِ. لَا رَيْبَ في أنَّ الْقَاضِيَ كانَ يَقْبِضُ لِلتَّوِ عَلَى قَاتِلٍ.

قالَ القاضي وَهْوَ يُحْكِمُ قَبْضَتَهُ عَلَى الْمُذْنِبِ:

- ما كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَكْتَشِفُ قاتِلًا. هَلْ تَعْلَمُ مَا يَنْتَظِرُكَ مِنْ عِقابٍ؟

كانَ الْجَزّارِ يَشْعُرُ بِقَطَراتٍ منَ العَرَقِ تَسيلُ علَى جَبِينِهِ. فَحاوَلَ دُونَ جَدْوَى الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ قَائِلًا إنّهُ عَثَرَ علَى جُثّةِ الأحْدَبِ في دُكّانِهِ، لكِنّ القَاضِيَ لَمْ يَكُنْ لِيُصَدِّقَهُ. كانَ كُلّ شَيْءٍ يُثْبِتُ التُّهْمَةَ عَلَى الْجَزَّار... الدَّمُ وَالْكِيسُ. وَسَوْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ فَوْراً.

أُعِدَّ لِلْقَصاصِ مِنَ الْجَزّارِ حَتى يُنَفَّذَ فِي صَباحِ الْغَدِ. وحَضَرَ الْجلّادُ مِنَ الفَجْرِ ومعَهُ سيْفُهُ وَمِقْصَلَتُهُ الْخَشبِيَّةُ. وكانَ الْخَبَرُ قدْ سَرَى فِي الْمَدِينَةِ وَتَحلَّقَ مِئاتٌ مِنَ الْفُضُولِيّينَ في سَاحةِ السُّوقِ...

أُحْضِرَ الْجَزّارُ مُقَيّداً كَكِيسٍ مِنَ القِنَّبِ عَلى ظَهْرِ حِمَارٍ، وَوُضِعَ رَأْسُهُ على الْمِقْصَلَةِ. وكانَ الْجلّادُ ما يَزالُ يَشْحَذُ سَيْفَهُ...

تَقَدَّمَ عَلِيٌّ، الّذِي كانَ "جُثْمَانُهُ" قَدْ تُرِكَ فِي بَيْتِهِ بَعْدَ جَنَازَةٍ مَهِيبَةٍ، إلَى وَسَطِ السَّاحَةِ. فَقَدْ كانتْ مَزْحَتُهُ تَمْضِي إلَى مَدَاهَا البَعِيدِ، وَكانَ عليْهِ أنْ يَكْشِفَ سِرَّهُ وَيُصَارِحَ بِالفَخِّ الّذِي نَصَبَهُ لِيَثْأَرَ مِنْ مُغْتَابِيهِ.

اِنْدَفَعَ رَجُلٌ عِنْدَ قَدَمَيْ القاضِي وَهْوَ يَصيحُ قائِلًا:

- الرَّحْمَةَ... الرّحْمَةَ... لَا أَسْتَطِيعُ السَّمَاحَ بِقَتْلِ امْرِئٍ بَرِيءٍ. أَنَا، الْخَبّازَ، مَنْ قَتَلَ الخيّاطَ القَصِيرَ، وَأنَا مَنْ نَقَلَ جُثَّتَهُ إلَى دُكّانِ الْجَزّارِ.

قَالَ القاضِي:

- حَسَنٌ... إنّي أُحِبُّ الصَّادِقِينَ. فَلْتَفُكُّوا قَيْدَ الْجَزّارِ وَلْتَقْطَعُوا عُنُقَ الْخَبّازِ.

وشَرَعَ النّاسُ فِي تَغْيِيرِ الْمَحكومِ عَلَيْهِ. وَوُضِعَ رَأْسُ الْخَبّازِ على الْمِقْصَلَةِ وَتَقَدّمَ الْجَلّادُ. لَكِنَّ رَجُلًا آخَرَ بَرَزَ مِنْ بَيْنِ الْجَمْعِ وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ هُوَ أيْضاً عِنْدَ قَدَمَيْ الْقَاضِي قائِلًا:

- الرَّحْمَةَ... الرّحْمَةَ... لَا أَسْتَطِيعُ السَّمَاحَ بِقَتْلِ امْرِئٍ بَرِيءٍ. أَنَا، تاجرَ التَّوابلِ، مَنْ قَتَلَ الخيّاطَ القَصِيرَ، وَأنَا مَنْ نَقَلَ جُثَّتَهُ إلَى دُكّانِ الْخَبّازِ.

وبَدَأَ صَبْرُ القاضِي يَنْفَدُ. إذْ يُمْكِنُ أنْ تَحْدُثَ تَوْبَةٌ وَاحِدَةٌ. ولَكِنْ أنْ تَحْدُثَ تَوْبَتَانِ عنْ جُرْمٍ واحِدٍ، فَهَذا لَا يُصَدَّقُ. وَمَعَ ذلِكَ فَقَد صَرَّحَ قائِلًا:

- إِنَّ الصِّدْقَ فَضيلَةٌ تَرْفَعُكُمْ. فَلْيُفَكَّ قيْدُ الْخَبّازِ وَلْتُقْطَعْ رَقَبَةُ تَاجِرِ التوابِلِ... هَيّا أَسْرِعُوا... إنّنَا لَنُضَيِّعُ الْوَقْتَ معَ كُلّ هَؤُلَاءِ الشُّرَفَاءِ.

وُضِعَ رَأسُ تاجِرِ التّوابِلِ عَلى الْمِقْصَلَةِ وَأَسْرَعَ الْجلّادُ بِرَفْعِ سَيْفِهِ. لَكِنَّ رَجُلًا آخَرَ أَتَى هُوَ أَيْضا وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ الْمُذْنِبُ... كان صَاحِبَ الْمَقْهَى... وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ خَليطَهُ الْمُرْعِبَ قَدْ قَتَلَ الخيّاطَ القَصيرَ الْمِسْكِينَ.

وأصَابَ الْقَاضِيَ هِيَاجٌ عَارِمٌ. وَقالَ:

- كَفَى... إنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ سَيَتَّهِمُ نَفْسَهُ وَاحِداً بَعْدَ الآخرِ... فكَيْفَ لِي أنْ أُنَفِّذَ الْحُكْمَ؟ هَذا غَيْرُ مَقْبُولٍ. فَلْيَتَقَدَّمْ إذَنْ كُلُّ هَؤلَاءِ الّذِينَ قَتَلُوا الخيّاطَ.

ولَكِنْ، كانَ عَلِيٌّ هَذهِ الْمَرَّةَ هُوَ مَنْ تَقَدَّمَ، وَرَوَى بِصَوْتٍ عَالٍ لِكُلّ أهْلِ الْبَلْدَةِ الْحِيلَةَ الَّتِي نَصَبَهَا لِهَؤُلَاءِ الّذِينَ كانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ.

فلَمْ يَستَطِعِ الْقاضِي أنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ مِنَ الضَّحِكِ. كانَ مَكْرُ الخيّاطِ القَصيرِ قَدْ أصَابَ هَدَفَهُ. وَاعَتَرفَ الْجَمِيعُ بِأنّهُ قَدِ اسْتَطَاعَ حَقّاً الدِّفاعَ عَنْ كَرَامَتِهِ... إنَّ الْعَدالَةَ لَمْ تَتَّخِذْ مَجْرَاهَا الطَّبيعِيَّ، لَكِنَّ هُنَاكَ دَرْساً قَدْ لُقِّنَ.

ومِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ، كَان عَلِيٌّ، وَهُوَ يَمُرُّ مَسَاءً فِي الشَّارِعِ الْكَبِيرِ، يَقِفُ طَويلًا عِنْدَ أَصْدِقَائِهِ الْجُدُدِ صَاحِبِ الْمَقْهَى وتَاجِرِ

التّوابلِ والْخَبّازِ والْجَزّارِ. وكانَ هَؤُلَاءِ الأَرْبَعَةُ لَا يَسْتَنْكِفُونَ مِنْ تَهْدِيدِ أُولَئِكَ الذّينَ مَا زَالُوا لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنَ الخيّاطِ الأَخْذَبِ القَصيرِ.

الْمَنْصُورُ صَانِعُ الذَّهَبِ

وَفيهَا نَرَى شَيْخاً يَحْكِي قِصَّةً مُمْتِعَةً عَنِ الْمَدِينَةِ ذَاتِ السُّقُوفِ الذَّهَبِيَّةِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنْ جُنُونِ أَهْلِهَا الَّذِينَ أَرَادُوا الاسْتِحْوَاذَ عَلَى أَسْرَارِ صِنَاعَةِ الْمَعْدِنِ الثَّمِينِ مَهْمَا كَلَّفَهُمْ ذَلِكَ مِنْ ثَمَنٍ.



فِي الْعِرْقِ الشَّرْقِيِّ الْكَبِيرِ، شَمَالَ سَهْلِ تَنْغَارْت، يَمْتَدُّ "الْعِرْقُ الْوَاعِرُ" الشَّاسِعُ الَّذِي لَمْ يَحْدُثْ أَنْ عَبَرَهُ أَحَدٌ الْبَتَّةَ طِيلَةَ قُرُونٍ عِدَّةٍ.

عَلَى أَنَّ هُناكَ أُسْطُورَةً تُؤَكِّدُ أَنَّ مَدِينَةً رَائِعَةً كانَتْ مَبَانِيهَا تَرْتَفِعُ فِي قَلْبِ هَذَا البَحْرِ الوَاسِعِ مِنَ الرَّمْلِ والْكُثْبَانِ... وَهْيَ مَدِينَةٌ كانَ أَهْلُهَا مِنَ الثَّرَاءِ الفَاحِشِ بِحَيْثُ غَطُّوا مَنَازِلَهُمْ بِقِرْمِيدٍ مِنَ الذَّهَبِ.

كانَ الْكِبْرُ والْغَطْرَسَةُ والْبُخْلُ والتَّوَاكُلُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتِي آلَتْ إِلَى اكْتِسَاحِ رُوحِ كُلِّ سَاكِنٍ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينةِ وَعَقْلِهِ، فَقَادَتِ الْقَرْيَةَ إِلَى الْمَهالِكِ.

لَكِنْ لِنَدَعِ الْبَدَوِيَّ "سِيدِي الْحَاج" يَرْوِي الْحِكَايَةَ الْمُمْتِعَةَ، حِكَايَةَ "الْمَدِينَةِ ذَاتِ الأَسْطُحِ الْمُذَهَّبَةِ"...

كانَتْ هَذِهِ الصّحْراءُ مُنْذُ أَمَدٍ طوِيلٍ جَنَّةً شَاسِعَةً. كانَ الْغَيْثُ يَسْقِي الْمِنْطَقَةَ بِاسْتِمْرارٍ. وكانَتِ الأنْهارُ الّتِي تَجْرُفُ الطَّمْيَ تَشُقُّ السُّهُولَ وَتَضيعُ مِياهُهَا فِي الشّمَالِ، فِي "الشُّطُوطِ"[1] بِالْقُرْبِ مِنْ بِسْكَرَةَ[2] وَتُوزُرَ[3]...

كانَتْ هذِهِ الأَرْضُ الّتِي تُخْصِبُهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيةُ تُؤْتِي أُكُلًا طَيِّباً وَإِنْتاجاً وَفِيراً لِلْفَلّاحِينَ الّذِينَ يَعِيشُونَ هُناكَ. وَكانُوا جَميعاً يَتَمَتَّعُونَ بِالْخَيْرَاتِ الّتِي وَهَبَهَا اللهُ لَهُمْ. وَلَمْ يَكونُوا لِذَلِكَ يَحْتَاجُونَ إِلَى شَيْءٍ. فَقَدْ كانُوا جَمِيعاً يَمْتَلِكُونَ مَا يَقْتَاتُونَ بِهِ وَيَلْبَسُونَ وَيُشَيِّدُونَ الْبُيُوتَ. لَكِنْ هَلْ سَيَخْتَلُّ هَذَا التّوَازُنُ سَرِيعاً بِمَا تَفْرِضُهُ طَبِيعَةُ الإنْسانِ أَوْ قَدَرُ اللهِ الْمَسْطُورُ؟

بَدَأَتِ الْمُشْكِلَةُ بِسَبَبِ الْمَنْصُورِ الْجَصَّاصِ. فَفِي حِينٍ كان كُلُّ واحِدٍ يمْتَلِكُ حاجَتَهُ وَلَا أَحَدَ يَحْسِدُ أحَداً، وَكان حُسْنُ الضِّيَافَةِ يَسِمُ كُلَّ بَيْتٍ، كانَ الْمَنْصُورُ يَعيشُ وَحيداً. وظَلَّ بَابُهُ مُوصَداً دُونَ النّاسِ. الْحَقُّ أنّه لَمْ يَكُنْ شِرّيراً، إِذْ لَمْ يكُنْ يَمْتَنِعُ عَنْ تَحِيّةِ مَنْ يُلَاقِيهِ، لَكِنَّهُ يَأْتِي أَحْيَاناً بِسُلُوكٍ غَرِيبٍ. فإذَا مَا رَافَقَهُ أَحَدٌ إِلَى عَتَبَةِ بَيْتِهِ، وَدَّعَهُ بِكُلِّ أَدَبٍ، وَتَرَكَهُ عَلَى بُعْدِ خَطْوَةٍ مِنَ الْبَابِ دُونَ أَنْ يَدْعُوَهُ لِلدُّخولِ. بَلْ إنّه كان يُسَارِعُ بِإغْلاقِ الْبَابِ بِالْمِفتاحِ.

(1) الشّطّ: تطلق المفردة على السبخة أو البحيرة الداخلية التي تجف مياهها صيفًا وتظهر فيها بعض المياه الشديدة الملوحة شتاءً.

(2) بسكرة: مدينة جزائرية تقع في الشرق الجزائري غير بعيد عن الحدود مع تونس [م].

(3) توزر: مدينة تقع في الجنوب الغربي التونسي غير بعيد عن الحدود مع الجزائر. وهي قريبة من "شط الجريد" [م].

كَان هَذا السُّلُوكُ الغَريبُ يُثيرُ فُضُولَ جِيرانِهِ. فَكانُوا يَتَساءَلُونَ: هَلْ يُخْفِي الْمَنصورُ شَيْئاً؟

كانَ الْجَصّاصُ يَرْجِعُ كلَّ يَوْمٍ بِرِفْقَةِ حِمارِهِ وَقدْ حَمَلَهُ الأَغْصانَ وَالْجُذورَ. لَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يُثيرُ الْغَرابَةَ، بِمَا أَنَّ مِهْنَتَهُ تَستَدْعِي الْخَشَبَ لِتَغْذِيَةِ الْفُرْنِ الّذِي يَتَصدَّرُ ساحَةَ بَيْتِهِ. فكانَ يُحَوِّلُ الْحِجَارةَ إِلَى جِصٍّ مَسْحُوقٍ يَبِيعُهُ كُلَّ يَوْمِ جُمُعةٍ فِي السّوقِ.

لَكِنْ حينَ يُرَى وهوَ يَحْمِلُ شُحْنَةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، فَهَذا مَا يُثيرُ الاهْتِمامَ. كانَتِ الزَّنابِيلُ عَلَى ظَهْرِ الْحِمارِ تَحْتَوِي على خَليطٍ منَ الأَعْشابِ الْجَافَّةِ ومِنْ جُلُودِ الْعَظَايَا وَأَرْجُلِ النّعَامِ وَالوَزَغِ الْجافِّ وقُرونِ الغَزَالِ.

لَا رَيْبَ أنَّ ثَمَّةَ سِرّاً فِي ذلكَ. ثُمّ إِنَّ تَاجِرَ التّوابِلِ قَدْ أَخْبَرَ مَنْ أرَادَ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ الْخَبَرَ أنَّ الْمَنْصُورَ قدْ أَخْفَى منْذُ يَوْمَيْنِ "البُورِيطس" و"كِبْرِيتَ الأَنْتِيمُوَان" و"الْكُوبَالتِينَ". وَبَدأَ جِيرانُ الْجَصّاصِ يَتَساءَلُونَ أَكْثَرَ فَأكثَرَ عَنْ حَقيقةِ أعْمالِهِ. وكانَ أَحْمَدُ وَرَشيدٌ مِنْ بيْنِ هَؤُلَاءِ الّذينَ كانُوا يَرْغَبُونَ فِي كَشْفِ هذا اللُّغْزِ. كَانَ هَذانِ الْجَارانِ القَريبانِ منْ بَيْتِ الْمَنْصُورِ أكْثَرَ النّاسِ فُضُولًا بِلَا رَيْبٍ. ولِذلكَ قَرَّرَا ذاتَ مَساءٍ أنْ يَذْهَبا لِيُشاهِدَا عنْ كَثَبٍ مَا يُدَبَّرُ فِي ساحَةِ بَيْتِ الْمَنْصُورِ.

كانَ اللَّيْلُ قدْ أرْخَى سُدُولَهُ حينَ اقْتَرَبَا مِنْ مَنْزِلِ الْجَصّاصِ.

وكانَتْ رِيحُ الْمَساءِ تَحمِلُ إلَى مَسْمَعَيْهِمَا أَصْوَاتاً غَرِيبَةً... كَمَا لَوْ أنه صَوْتُ مِطْرَقَةٍ تَطْرُقُ الْحَديدَ. هَلْ كان يَشْحَذُ مِنْجَلَهُ أَمْ كانَ يُصْلِحُ طَوْقَ حِمارِهِ فِي هَذهِ السّاعةِ الْمُتأَخِّرَةِ مِنَ اللّيْلِ؟

بَلَغَ أحْمَدُ ورشيدٌ الْحَائِطَ الّذي يُحِيطُ بِالوَرْشَةِ فَيَحْمِيهَا. وتَوَجَّهَ أحْمدُ لِصاحبِهِ قَائِلًا:

- اِصْعَدْ على كَتِفِيَّ وانْظُرْ مَاذا يَحْدُثُ.

بعْدَ دَقائِقَ، هَبَطَ رَشيدٌ مِنْ مَرْقَاهُ الْمُرْتَجَلِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَنْطِقَ إلّا بِكلمَاتٍ قَليلَةٍ:

- لَنْ تُصَدِّقَ ما أقُولُ، فَاصعَدْ بِنَفْسِكَ لِتَرَى.

تَسَلَّقَ أحْمدُ هوَ أيْضاً كَتِفَي رَفيقهِ. ولَمْ يُفارِقْ بِبَصَرِهِ الْمَنْصُورَ. كانَ الْمَنْصورُ يُخْرِجُ وِعاءً كَبِيراً مِنْ تُرابِ تَنُّورِهِ الّذِي كانَ يَتَأَجَّجُ نَاراً كَجَهَنَّم. كانَ يُحَرِّكُ الوِعاءَ بِقَضيبٍ، فَيَخْرُجُ مِنْهُ سائِلٌ لَمَّاعٌ يَسيلُ بِبُطْءٍ إلَى قَالَبٍ. ثُمّ وَضَعَ الْمَنْصُورُ فِي السّائِلِ الْمُنْصَهِرِ قِطْعَةً صَغيرَةً تَتَلأْلأُ مِثْلَ النّجْمَةِ. وبعْدَ أنْ غلَى السّائِلُ بعْضَ الْوَقْتِ، سَكَنَ. فأَمْسَكَ الْجَصّاصُ مِطْرَقَتَهُ وكَسَرَ الْقَالَبَ... وَيَا لَلْعَجَبِ!... أخْرجَ مِنْهُ سَبيكَةً رَائعَةً مِنَ الذّهَبِ تَلْمَعُ تَحْتَ ضَوْءِ أَلْسنَةِ اللّهَبِ فِي التَّنُّورِ.

لَقَدْ سَمِعَ أحْمدُ كَمَا سَمِعَ رَشيدٌ عَنِ الكِيمْيَائِيِّينَ والْحُكَماءِ، لَكِنّهُ كان يَشُكُّ بعْضَ الشَّكِّ فِي وُجودِهِمْ. وها هُوَ يَكْتَشِفُ صانِعَ ذَهَبٍ، هُناكَ عَلَى بُعْدِ خُطْوَتَيْنِ مِنْهُ.

ماذَا سَيَفْعَلانِ؟ هلْ يَنْسَيَانِ ما رَأَيَا؟ هَذَا مُحالٌ. هَلْ يَنْشُرانِ النَّبَأَ فِي الْمدينَةِ بِأَسْرِهَا؟ لِمَ لَا؟ لَكِنَّ هُناكَ احْتِمالًا ثالِثاً طَرَحَاهُ واتَّفَقا عَلى تَنْفيذِهِ. لَقَدْ عَوَلَا كثيراً عَلى اغْتِنَامِ هذَا الاكْتِشافِ الْمُذْهِلِ الّذِي لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ سِوَاهُمَا.

مِنَ الْغَدِ، طَرَقا بابَ جارِهِمَا. وقالَا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ للمَنْصُورِ الّذي حَرِصَ على أَلّا يُدْخِلَهُمَا إِلَى بَيْتِهِ:

- السّلامُ عليْكمْ، أَعَزَّكَ اللهُ.

- وَعَلَيْكما السّلَامُ. هَلْ منْ خِدْمَةٍ أقَدِّمُهَا لَكُمَا؟

- اعْذُرْ فُضولَنَا. لَكِنَّا رأَيْنَا حِمارَكَ منْذُ أيّام يَحْمِلُ أَشْيَاءَ غَريبَةً فِي زِنْبِيلَيْهِ... وقدْ قالَ تاجِرُ التّوابلِ إنّهُ باعَكَ "البُورِيطسَ" و"كِبْريتَ الأَنْتِيمُوَانَ" و"الْكُوبَالْتِينَ"... أَلَيْسَ ذلكَ بِغريبٍ عَلَى جَصَّاصٍ؟

فأجَابَ الْمَنْصُورُ علَى الْفَوْرِ:

- هذا أمْرٌ لَا يَعْنِيكُمَا.

لَكِنّ جارَيْهِ أظْهَرَا عَزْمَهُمَا على مَعْرِفَةِ الْمَزيدِ. فكيْفَ يَتخَلّصُ منْهُمَا؟ وفَكّرَ قائِلًا فِي نَفْسِهِ: "الأجْدَرُ أنْ أُهَدِّئَ فُضُولَهُمَا باخْتِلاقِ كِذْبَةٍ". وتَوَجّهَ إليْهِما قائلًا بِلَهْجَةِ الصّادِقِ:

- حَسَنٌ. عِدانِي بِكِتْمَانِ السِّرِّ... سَتُمَكِّنُنِي هذه الْعَقاقِيرُ مِنْ صُنْعِ دَواءٍ... قدْ يَستطيعُ شِفاءَ الأَمْراضِ جَميعاً.

فَقالَ لهُ أحْمَدُ بلَهْجَةِ السّاخِرِ:

- كَيفَ لِجَصّاصٍ أنْ يُصْبِحَ طَبِيباً؟ إنَّكَ لَا تُحْسِنُ الْكَذِبَ. أَلَنْ يكونَ هذا الدّواءُ ثَقِيلًا بَعْضَ الشّيْءِ عَلَى الْمَعِدَةِ؟ يَبْدو لِي، منْ خِلالِ لَوْنِهِ الأصْفَرِ، أَنَّهُ يَستطيعُ مُعالَجَةَ أَشْياءَ أخْرَى كَثِيرَةٍ غَيْرَ الزُّكامِ أوِ الرَّعْنِ[4].

لقَدْ كُشِفَ أمرُ الْمَنْصُورِ في اليَوْمِ نَفْسِهِ الّذي تَمَكّنَ فيهِ منْ وَضْعِ الْمُعادَلَةِ وصُنْعِ سَبِيكَتِهِ الذّهَبِيَّةِ الأُولَى. لَقَدْ ظَلَّ يَبْحَثُ لِسَنَواتٍ طَويلَةٍ. وما كادَ يَنْجَحُ حتَّى أَصْبَحَ اخْتِراعُهُ مَعْرُوفاً لَدَى جارَيْ السُّوءِ هَذَيْنِ.

وأَرْدَفَ رَشيدٌ قائِلًا:

- هَيّا يا مَنْصورُ. أَعْطِنَا بَعْضاً منَ الذَّهَبِ وَسَنَنْصَرِفُ سَريعاً.

فأجَابَ الْمَنْصُورُ بِسُرْعَةٍ:

- لَا. فلَا شَكَّ أنّكُما سَتَنْشُرانِ الْخَبَرَ فِي الْمَدينَةِ بِأَسْرِهَا.

فألَحَّ أحْمَدُ قائِلًا:

- حَسَنٌ، اِكْشِفْ لنا سِرَّ صِناعةِ الذّهَبِ، ونُقْسِمُ لَكَ بأنّنا لَنْ نَبُوحَ بِهِ لأَحَدٍ.

لَكِنَّ الْمَنْصُورَ لَمْ يَكشِفِ السِّرَّ. كانَ يَعْلَمُ أنّ الذّهَبَ يَذْهَبُ

(4) الرعن: هو ما يسمى عادةً بضربة الشمس.

بِعُقُولِ البَشَرِ، لأنَهُم لَا يَمْلِكونَ منه غَيْرَ النَّزْرِ الْقَليلِ. وأنْذَرَ مُخاطِبَيْهِ بِمَصيرٍ مُرْعِبٍ:

- لَسَوْفَ يَتَحَرَّشُ بِكُمَا أَصْدِقاؤُكُمَا وَيَسْألُونَكُمَا كَشْفَ سِرِّكُمَا أنتُمَا أيْضاً. . . ولَسَوْفَ يُصيبُ الْمدينةَ شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ. لقد تَمَكَّنْتُ حَقّاً مِنْ صُنْعِ سَبيكَةٍ ذَهَبِيّةٍ، لَكِنّي أُقْسِمُ بِأَنَّنِي لَنْ أَصْنَعَ غيْرَهَا. فَلأُمْسَخْ جَمَلًا إِنْ لَمْ أَبَرَّ بِقَسَمِي.

أمامَ الإلْحاحِ الشّديدِ لَا يَمْلِكُ الْمَرْءُ شَيْئاً. لَكِنّ أحْمدَ ورَشيداً لَمْ يَذْكُرَا قَرارَهُمَا الأخِيرَ. وبِمَا أنّهُمَا لَا يَسْتَطيعَانِ الْحُصولَ علَى الذَّهَبِ لِنَفْسَيْهِمَا فَحَسْبُ، فَقدْ قَرّرَا أنْ يَرْفَعَا أمْرَ الْمَنْصُورِ إلَى الْخليفَةِ.

وانصرَفَا إلَى قَصْرِ الْحاكِمِ الْقَوِيِّ فأنْصَتَ إِلَيْهِمَا إنْصاتاً. شَعَرَ الخليفةُ الّذي يَحكُمُ مَدينةً بِلَا تاريخٍ بِالامْتِعاضِ وهو يَكْتَشِفُ أنّ مَدِينَتَهُ تُخْفِي كيمْيَائِيّاً قادِراً علَى صُنْعِ الذَّهَبِ.

- هَلْ قُلْتُمَا إنّهُ صانِعُ ذَهَبٍ؟ الْمَنْصُورُ الْجَصّاصُ؟ حَسَنٌ، لِنَرَ إنْ كانَ هَذا الْخَبَرُ صَحيحاً.

وأَرْسَلَ جُنُودَهُ لِيَقْبِضُوا على الْمَنْصُورِ الْمِسْكِينِ. وَمَثُلَ الْجَصّاص بيْنَ يَدَي الْخليفَةِ فِي الْحالِ. وحينَ رأى أَحْمَدَ ورَشيداً وَاقِفَيْنِ بِجانبِ الْحاكِمِ، أَدْرَكَ مَا يَنْتَظِرُهُ.

قالَ الْخَليفةُ وهْوَ يَشْبِكُ يَدَيْهِ حَوْلَ كِرْشِهِ:

- هَكَذا إِذَنْ. . . يَبْدو أنَّكَ تَعْرِفُ سِرَّ صِناعَةِ الذَّهَبِ؟

- نَعَمْ... أعْرِفُ الْمُعادَلَةَ...

لَمْ يَكُنِ الْمَنصورُ يَسْتَطِيعُ الإنْكارَ. فقَدْ فَتَّشَ أحَدُ الْحُرّاسِ مَنْزِلَهُ وأمْسَكَ بِيَدِهِ سَبيكَةَ الذَّهَبِ الّتِي كانتْ بِطُولِ حِزامِهِ الذّي يَتَمَنْطَقُ به، وهيَ السَّبِيكَةُ الوَحيدَةُ الّتِي كانَ الْمَنْصُورُ أخْفاهَا تَحْتَ كِيسِ الْجِصِّ.

وسألهُ الخليفةُ بصَوْتٍ نَافِدِ الصَّبْرِ، فِيمَا كانَ الْجنودُ يُحاوِلونَ إرْغامَ الْمُتَّهَمِ علَى الإجابَةِ:

- مِنْ أَيْنَ لَكَ هذا السِّرُّ؟

فأجابَ الكِيميائِيُّ الْمَاهِرُ:

- مِنْ... جَدِّي مُصطفَى رَحِمَهُ اللهُ.

قالَ الْخليفةُ الّذِي كانَ يُريدُ معْرِفَةَ الْمَزيدِ:

- ثُمَّ ماذَا؟

- وَرِثْتُ مِنْهُ، عِنْدَ مَوْتِهِ، مَخْطُوطَةً جَاءَ بِها مِنْ مِصْرَ. وقَدْ أخْبَرَتْنِي أمِّي بأنّه اشْتَرَاهَا بِدينارَيْنِ وهُوَ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ إلَى مَكَّةَ. لكنَّ الرّجُلَ الْمِسكينَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ القِراءَةَ. ولَوْ كانَ يَعْرِفُ مَا يَحْتَوِيهِ هذا الْكتابُ لَمَا مَاتَ مِيتَةَ الْبُؤْسِ...

- وماذا يَحْتوِي هذا الكِتابُ؟

- أيُّها الحاكِمُ، لقَدْ كانَتِ الكِيمياءُ مَعْرُوفَةً بِمِصْرَ حَتّى قبْلَ وِلادَةِ نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ. وقدْ كانَ مُؤلِّفُ هذا الْكِتابِ أبُو

مُوسَى جابِرٌ، رَحِمَهُ اللهُ، مُجَرَّدَ ناقِلٍ لأَسْرارِ الكِيمْيائِيِّينَ الْمِصْرِيِّينَ الْكُبْرَى.

فَلَمَعَتْ عَيْنَا الْخليفةِ لَمَعاناً مُختلِفاً هذهِ الْمَرَّةَ، وقال:

- إلَيْكَ حُكْمِي: آمُرُ بأنْ يُوضَعَ هَذا الْمُؤَلَّفُ تَحْتَ عُهْدَتِي وبِأَنْ تُفَسِّرَ لِي كلَّ الطَّرائقِ الْمُؤَدِّيَةِ إلَى صِناعَةِ الذَّهَبِ.

لكنَّ الْمَنْصُورَ لَمْ يكُنْ يَرَى الأَمْرَ بِهذهِ الصُّورَةِ، فَقالَ وهو يَنْحَنِي بِإجْلالٍ أمَامَ الْحاكِمِ:

- اطْلُبْ مِنِّي ما شِئْتَ، لكِنِّي لَا أَسْتَطيعُ أنْ أبُوحَ لَكَ بِهذا السِّرِّ ولَا أُريدُ أنْ أبُوحَ بِهِ.

فاستشَاطَ الْخَليفةُ غَضَباً وقالَ:

- عَلَيْكَ أنْ تُطيعَ أمْرِي أيُّهَا الْجاحِدُ وإلَّا أَمْضَيْتَ بَقِيَّةَ حَياتِكَ فِي السِّجْنِ. فَاخْتَرْ بَيْنَ هَذيْنِ الأَمْرَيْنِ.

كان الْمَنْصُورُ قدْ اختَارَ بَعْدُ. فقَال:

- إنّ السِّجْنَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنَ الشّرُورِ الّتِي سَيَنْجَرُّ عنْها كَشْفُ مثْلِ هَذا السِّرِّ. . . أيها الحاكِمُ الْمُعَظَّمُ، سَيَجْعَلُ مِنْكَ الذَّهَبُ حاكِماً مُسْتَبِدّاً، ولَسَوْفَ تَنْدَلِعُ الْحُروبُ جَرَّاءَ ذلِكَ، وَلَنْ تَحْمِلَ غَيْرَ الْخَرابِ والْمصائِبِ لِلنَّاسِ أجْمَعِينَ.

لَمْ يَكُنِ الْخَليفَةُ امْرَأً يَتَخَلَّى عنْ مَطالِبِهِ. فَأُلْقِيَ بالْمَنْصُورِ فِي غَياهِبِ السِّجْنِ. ولَمْ يكُنْ يُعْطَى طِيلَةَ الْيَوْمِ غيرَ كِسْرَةِ خُبْزٍ يابِسٍ

وبَعْضَ الْماءِ يَجْلِبُهُمَا حارِسُهُ، وهو رجُلٌ فَظٌّ غَليظُ القَلْبِ. وقَدْ حاوَلَ سَجّانُهُ هُوَ أيْضاً أنْ يَنْتَزِعَ منه السِّرَّ. فقال لهُ:

- بُحْ لِي بِسِرِّ الْمُعادَلَةِ وَلَسَوْفَ أُطْلِقُ سَراحَكَ...

فأجابَ الْمَنْصُورُ مَرَّةً أُخْرَى:

- لَا. لقدْ أصابتْكَ أنْتَ أيْضاً حُمّى كَسْبِ الْمالِ، ولَسَوْفَ يَجْعَلُكَ طَعْمُ السُّلْطَةِ تَكْرَهُ أمْثالَكَ..

وتَلَقَّى الْجَصّاصُ كثيراً منَ الزِّياراتِ. كانُوا منْ ذَوِي السُّلطانِ ومِنْ الأَثْرياءِ ومِنَ الأقَلِّ ثَراءً ومِنَ الفُقراءِ ومِنَ الْمَساكينِ الّذين جاؤوا يُغْرُونَهُ. كانَ كُلُّ واحدٍ منهم يَطلُبُ بعْضاً مِنَ الذّهَبِ أوِ الْمُعادَلَةَ الشّهيرَةَ الّتِي اشْتَدَّ الطَّمَعُ فيها. لكِنّ الْمَنْصُورَ لَمْ يَسْتَجِبْ لِهَذِهِ الطّلَبَاتِ جَميعاً. وكانَ يقُولُ:

- لوْ كُشِفَ السِّرُّ لَقَادَ المدينةَ إلَى البَلاءِ والدَّمارِ. ألَا تَرَوْنَ أنَّ الذَّهَبَ قَدْ كان سبَبَ بلائِي، رغْمَ أنّي قد أقْسَمْتُ بِألَّا أصْنَعَ إلّا سَبيكَةً واحِدَةً. وقدْ أدّى هَذَا بِي إلَى السِّجْنِ. لَا... الْمَوْتُ أفْضَلُ عِنْدي منَ البَوْحِ بِسِرِّي.

ولَمْ يكُنِ الحاكِمُ يسْمَعُ هذَا التّبْريرَ فيَسْتَشِيطُ غيْظاً فحَسْبُ، بَلْ كانَ أيْضاً شَديدَ الاسْتِيَاءِ مِنْ رؤْيَةِ هذَا الْجَصّاصِ الْحَقيرِ يَعْصِي أَمْرَهُ. ورَدَّدَ قائلًا:

- يُفَضِّلُ الْمَوْتَ عَلى البَوْحِ بالسّرِّ... حَسَنٌ... سَأستجيبُ لِمَطْلَبِهِ. فَلْيُطَيِّنْ عليْه الْحَبْسُ وَلْيَمُتْ جُوعاً.

وفِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ، رَأى الْمَنْصُورُ صَديقَهُ مَحْموداً البَنَّاءَ وهو مُنْهَمِكٌ فِي سَدِّ بابِ زَنْزَانَتِهِ. ولِسُخْرِيَةِ الْحَوَادِثِ، كان العامِلُ يَسْتَخْدِمُ بكُلِّ مَهارَةٍ الْجِصَّ الذِي باعَهُ إيّاهُ الْمَنْصُورُ قَبْلَ أسابيعَ قَليلةٍ.

– يا مَحمودُ يا صَديقِي، أَوَدُّ قبلَ أنْ أمُوتَ أنْ أَكْتُبَ وَصِيَّتِي. فَهَلَّا أَعْطَيْتَنِي قَلَماً لأَكْتُبَ بِهِ.

لَمْ يَكُنِ البنّاءُ يَعْرِفُ سَبَباً لِعِنادِ هَذا الرَّجُلِ، بَلْ هو لَا يَعْرِفُ لِماذا سَيموتُ. لكنّه حينَ تَذَكَّرَ أيامَ الْمَعرُوفِ بَيْنَهُمَا، لَمْ يَعْتَرِضْ علَى هذا الطّلَبِ الأخيرِ، وأحْضَرَ للمَحْكومِ عَلَيْهِ قَلَماً وبَعْضَ الأوْراقِ.

وفِيما كانَ الْبابُ والنّافِذَةُ "يُغْلَقَانِ" شَيْئاً فَشَيْئاً، كانَ الْمَنْصُورُ يَكْتُبُ عَشَراتِ الْمَرّاتِ الْمُعادلَةَ – الّتِي كانَتْ إلَى ذلكَ الْحِينِ سِرَّ صِناعَةِ الذَّهَبِ – عَلَى وَرَقَاتٍ كانَ قَدْ قَسَّمَها إلَى قِطَعٍ صَغيرَةٍ. وقبلَ أن يَخْتِمَ البَنّاءُ آخِرَ حَجَرٍ، مَدّ الْمَنْصُورُ ذِراعَهُ عَبْرَ القُضْبانِ، وطَيَّرَ كُلَّ وُرَيْقاتِهِ.

أَخَذَتْ رِيحُ الْجَنوبِ تلْكَ الوُرَيْقاتِ واحِدَةً تِلْوَ الأخْرَى إلَى قَلْبِ الْمدينَةِ. فَالْتَقَطَ بَعْضُ النّاسِ وُرَيْقَةً، ثُمَّ الْتَقَطَ بعْضُهم الآخَرُ وُرَيْقَةً ثانيَةً، ثُمَّ أصبَحَ بِيَدِ كُلّ ساكِنٍ نُسْخَةٌ مِنَ الْمُعادَلَةِ الثّمينةِ. ونَتَجَ عنْ ذلك هَيَجانٌ لا يُوصَفُ. لَمْ يَكُنْ هُناكَ بيْتٌ يَخْلُو مِنْ تَنُّورٍ. وَنشَطَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ فِي صُنْعِ ذَهَبِهِ. أخَذ جلُودَ العَظايا

وأَرْجُلَ النّعامِ والْوَزَغَة الْمُجَفَّفَةَ وقُرونَ الْغزالِ والأسْتِيريتَ والكُوبالْتِينَ... وأصبَحَتْ كُلُّ هذه الأَخْلاطِ تَنْتَشِرُ في المدينةِ.

وأضْحَى كلُّ أهْلِ المدينةِ، خِلالَ بِضْعَةِ أيّامٍ، أثْرِياءَ. لَمْ يَعُدْ هناكَ شَحّاذونَ ولَا مُتَسَوِّلُونَ فُقَراءَ يَقِفونَ على قارِعَةِ الطّريقِ. وَنُسِيَ الْمَنْصُورُ في سِجْنِهِ. وبَدَا النّاسُ جَميعاً سُعَدَاءَ.

ولَمّا انتَشرَ الثّراءُ، بَدَأ النّاسُ يُفكِّرونَ كيْف سَيُنْفِقُونَ ثَرْوَتَهُمْ. كان باعَةُ الْحُلِيِّ أوّلَ الضّحايا، ثُمّ تَبِعَهمُ الْخَيّاطونَ. أصْبَحَ النّاسُ يَتَجوّلونَ فِي الشّوارِعِ وهمْ يَلْبَسُونَ القَفاطِينَ الْمُذَهَّبَةَ، وأضْحَتِ السّلاسِلُ والعُقُودُ الباهِظَةُ الثّمَنِ تُحَلِّي الْمَلابِسَ، وكانَ النّاسُ يَتَنافَسُونَ فِي اللّباسِ الغَريبِ والْفَاخرِ. وكانَتِ الْحيَوَاناتُ هِيَ أيْضاً تَحْمِلُ الْجَواهِرَ، فكانَتِ الْحَميرُ تَعْرِضُ الأَعِنَّةَ الْمَصْنُوعَةَ من الذّهَبِ، ولَمْ تَكُنِ الإبِلُ تُعْقَلُ إلّا بِسلاسِلَ صُنِعَتْ مِنْ أَثْمَنِ الْمَعَادِنِ. بَلِ انْتَهَى الأمْرُ بالنّاسِ إلَى تَغْطِيَةِ أَسْطُحِ بُيُوتِهِمْ بِقِرْمِيدٍ مِنَ الذّهبِ.

ودامَ هذا التّبذيرُ والشَّطَطُ عدّةَ أَشْهُرٍ في جَوٍّ منَ الابْتِهاجِ العَامِّ. ولَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَعْمَلُ. لَمْ يَعُدِ الْجَمّالُونَ يُسافِرونَ فِي الصّحْراءِ... لَمْ يَعُدِ الإسْكافِيّونَ يُصْلِحُونَ الأخْفافَ... لَمْ يَعُدِ الْخَبّازونَ يُحِبّونَ أنْ يُمْضُوا لَيالِيَهُمْ أَمَامَ تَنورِ الْخُبْزِ، حَتّى يَجْنُوا بَعْضَ الدّنانيرِ الْحَقيرةِ... لَمْ يَعُدِ الفَلّاحونَ يُريدونَ اسْتِخْرَاجَ الْماءِ ولَا إزْهاقَ النَّفْسِ لِجَنْيِ الْمَحاصِيلِ... ولَمْ تَعُدْ هُناكَ أَسْواقٌ ولَا تُجّارٌ.

وبَدَأَتِ الْمُؤَنُ تَنْفَدُ. ولَمْ تَعُدِ المدينَةُ الْمُنْعَزِلَةُ بيْنَ الكُثْبانِ تَتَبادَلُ الْبَضائِعَ مَعَ أيَّةِ مَدينةٍ مُجاوِرَةٍ... لَمْ يَعُدْ هُناكَ شَيْءٌ فِي الْمدينةِ ذاتِ الأسْطُحِ الذَّهَبِيَّةِ.

لَمْ يَعُدِ الْمَاءُ يَجْرِي فِي الْبَساتِينِ الَّتِي أصَابَهَا الْجَفَافُ. وزَحَفَتِ الرِّمالُ عَلَى الشَّوارِعِ شيْئاً فَشَيْئاً...

ولَمْ يَكُنْ أهْلُ الْمدينةِ، رَغْمَ الْجُوعِ الَّذِي أصَابَهُمْ، يُريدونَ هَجْرَ السَّبائِكِ الَّتِي جَمَعُوهَا، مَهْمَا كَلَّفَهُم ذلكَ الأمْرُ. وكانتِ الْحيواناتُ أوَّلَ مَا انْقَرَضَ. وظَلَّ النَّاسُ أحْيَاءً لِبَعْضِ الْوَقْتِ، لَكِنَّهم مَا لَبِثُوا أنْ الْتَحَقُوا بِحَيَواناتِهِمْ. ثُمّ عَمِلَ الزَّمَنُ والرَّمْلُ عَمَلَهُمَا رُوَيْداً رُوَيْداً، ومُحِيَتِ الْمَدينَةُ الْمَلْعُونَةُ مِنَ الْخَريطةِ، بَعْدَما كانَتْ تَنْعَمُ بالسّعادةِ والرَّفَاهِيَّةِ.

وَهَكَذا أنْهَى الرّاوِي الْعَجُوزُ "سيدي الْحاج" حِكَايَتَهُ. ثُمّ أضافَ وهو يَتَصَفَّحُ كِتاباً قَدِيماً اهْتَرَأَ غِلافُهُ: "مَنْ مِنْكُم يَوَدُّ أنْ يَعْرِفَ سِرَّ صِناعَةِ الذّهَبِ؟" لكِنَّ الْبَدْوَ الّذينَ كانوا يُصْغُونَ إلَى حِكايَتِهِ لَمْ يَرُدُّوا. وتَقَاسَمُوا الشّايَ واثِقِينَ مِنْ أنّ حَياةَ التَّرْحالِ فِي الصّحراءِ والْمَالَ القَليلَ الّذِي يَمْلِكونَهُ أَغْلَى مِنْ ذَهَبِ الدّنيا بَأَسْرِهِ، حَتّى الذّهبُ الّذي يَصْنعُه أشَدُّ الكيميائِيِّينَ مَهارَةً.

الْقاضِي وَاللِّصُّ وَالنَّخْلَة

وَفِيهَا نَرَى لِصّاً يُحَاوِلُ أَنْ يُثْبِتَ بَرَاءَتَهُ بِاتِّهَامِ شَخْصٍ آخَرَ، وَقاضِياً، أَشَدَّ مِنْهُ دَهَاءً، يَكْشِفُ الْمُذْنِبَ الْحَقِيقِيَّ.



كان "الْعَرْبِيُّ" و"الطّاهِرُ" يَنْصِبانِ أمامَهما، كَكُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، الْبَرَانِسَ والقَشّابِيّاتِ والْفَساتِينَ الْمُخْتلِفَةَ الأحْجامِ والألْوانِ لِبَيْعِها فِي ساحَةِ السُّوقِ القَرِيبةِ مِنَ الْمسْجِدِ. لَكِنَّ النَّهارَ انْقضَى، وكانَ الزَّبائِنُ قِلَّةً والْمَبِيعَاتُ مَحْدُودَةً جِدّاً.

كانَ العَرْبيُّ يوَبِّخُ هَؤلَاءِ الْبُخلاءِ الّذينَ كانُوا يَظَلُّونَ يُساوِمُونَ الْبَضائِعَ لِساعَاتٍ كَيْ تُخَفَّضَ لَهُمْ أسْعارُ السَّراوِيلِ والْجَلّابِيّاتِ بَعْضَ "الدُّورُوَاتِ"[1]. أمّا بالنِّسبَةِ إلَى الطّاهِرِ، الّذِي كانَ يُفَلْسِفُ الأشْياءَ، فَقَدْ كانَ يَرَى أنَّ عَلَيْهِما ألَّا يَبْتَئِسَا لِذَلِكَ. وكانَ يَقولُ: "سَتَكُونُ الأحْوالُ أفْضَلَ فِي الأسْبُوعِ الْقَادِمِ إنْ شاءَ اللهُ".

وفِيمَا كانَتِ الشَّمْسُ تَتَوارَى لِلتَّوِّ وَراءَ الْمَسْجِدِ، قَرّرَ الصّدِيقانِ الْمَنْكُودَا الْحَظِّ أنْ يَجْمَعَا بَضائِعَهُمَا. وحَمَلَا الأكْياسَ

(1) "الدّورو": عملة محلية ضئيلة القيمة، وتساوي في تونس مثلًا خمسة مليمات.

الْكَثِيرَةَ بِأَطْرافِ أَذْرُعِهِمَا، وقَصَدَا دُكّانَ التَّاجِرِ. لَمْ يَكُنِ العَرْبيّ والطّاهِرُ يُقيمَانِ فِي الْمَدينَةِ، بَلْ فِي "زغُومَ"، وَهْيَ قَرْيَةٌ صَغيرَةٌ مُنْعَزِلَةٌ بَيْنَ الْكُثْبانِ. وَقَدْ وافَقَ التّاجِرُ، الّذِي كانَ مِنْ أقَارِبِ العَرْبيّ الأبَاعِدِ، عَلى مُسَاعَدَتِهِمَا، فكَانَ يُبْقِي الْبَضائِعَ فِي عُهْدَتِهِ حَتَّى تُعْرَضَ لِلْبَيْعِ فِي يَوْمِ الْجُمُعةِ الْمُوَالِي.

حينَ وَصَلَا أخِيراً إلَى الطّريقِ الْمُتْرَبَةِ الّتِي تُؤَدِّي بِهِمَا إلَى بَيْتَيْهِمَا، عَدَّ العَرْبِيُّ الْقِطَعَ النَّقْدِيَّةَ القَليلةَ الّتِي جَنَيَاهَا طِيلَةَ النَّهارِ. وَقالَ:

- إنَّهُ مَبْلَغٌ زَهيدٌ جِدّاً، ولنْ يكونَ كافِياً لِمَصارِيفِنَا حَتَّى نِهَايَةِ هَذا الأُسْبُوعِ.

- لَا تَشْغَلْ بَالَكَ بالأَمْرِ، سَنَجْنِي مِنْ بُسْتانِنَا الصَّغِيرِ مَا يُقِيمُ أَوْدَنَا.

لَكِنَّ هَـذا الْكَـلَامَ لَمْ يُـهَـدِّئْ مِـنْ رَوْعِ الـعَـرْبِـيّ، وَاشـتَـدَّ بِـهِ الْغَضَبُ فَقالَ:

- إنَّ هَـذِهِ الْمِـهْـنَـةَ لَا تَـدُرُّ عـلَيْـنَـا أَيَّ رِبْـحٍ. إنَّـنَـا فَـقِـيـرَانِ، وَلَسَوْفَ نَظَلُّ فَقِيرَيْنِ.

فَعادَ الطّاهِرُ يَقولُ مُبْتَسِماً:

- دَعْكَ مِنْ هَذا، يَنْبَغِي أَلَّا نَكُونَ مُتَشَائِمَيْنِ إلَى هَذا الْحَدِّ.

ومَا كادَ يَنْتَهِي مِنْ كلَامِهِ حَتّى تَعَثَّرَ بِكِيسٍ صَغِيرٍ كانَ مُلْقًى أَرْضاً. وَانْحَنَى الطّاهِرُ وَالْتَقَطَ الْكيسَ وَرَازَهُ بِيَدِهِ.

قالَ لَهُ رَفيقُهُ:

- مَاذَا تَنْتَظِرُ حَتّى تَفْتَحَهُ؟

فَكَّ الطّاهِرُ عُقْدَةَ الْخَيْطِ الصّغيرِ تَحْتَ أَنْظارِ العَرَبِيّ الّذِي كَادَ صَبْرُهُ يَنْفَدُ. كانَ الْكِيسُ يَحْتَوِي عَلى ثَرْوَةٍ صَغِيرَةٍ... إنَّه لا يَحْتَوِي عَلى قِطَعٍ صَغِيرَةٍ مِنَ النُّحاسِ، بَلْ عَلَى قِطَعٍ ذَهَبِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ.

قالَ الطّاهِرُ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ:

- لَقَدْ سَلَكَ كَثيرٌ مِنَ الْبَدْوِ هذهِ الطّريقَ لِلْوُصولِ إلَى سُوقِ "الْوَاد"، وَيَنْبَغِي أنْ نَعُودَ إلَى الْمَدينَةِ، فَلا رَيْبَ أَنَّ صَاحبَ هذا الْمالِ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ.

فبَادَرَ العَرَبيُّ بِالقَوْلِ:

- هَلْ جُنِنْتَ؟ مَنْ ذَا الَّذِي رَآنا وَنَحْنُ نَعْثُرُ عَلى هَذا الْمالِ؟ لَا أَحَدَ... مَنْ هُوَ صَاحِبُهُ؟ لا عِلْمَ لَنا بِذَلِكَ... فَلْنَحْتَفِظْ بِهِ إذَنْ.

- لَا. لَسْتُ مُوافِقاً علَى ذلك. نَحْنُ لَسْنا لِصَّيْنِ.

- لَكِنّنا لَمْ نَسْرِقْ شَيْئاً. لقَدْ أُرْسِلَ هَذا الْكَنْزُ إلَيْنا... وهَذا لَيْسَ مِنَ السَّرِقَةِ فِي شَيْءٍ.

وَظَلّا يتَجادَلانِ حتّى خَطَرَتْ بِبالِ الطّاهِرِ الرَّجُلِ الْحَكيمِ فِكْرَةٌ:

- حَسَنٌ. نَحْتَاجُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْوَقْتِ حتّى نُفَكِّرَ فِي الأَمْرِ مَلِيّاً. فَلْنَحْفِرْ حُفْرَةً عِنْدَ هَذهِ النَّخْلَةِ، وَلْنَدْفِنِ الْمَالَ ونَدَعْهُ هَنا حَتّى نَتّفِقَ عَلى مَا عَلَيْنَا فِعْلُهُ.

- فِكْرَةٌ طَيّبَةٌ. يَنْبَغِي أنْ نُفَكِّرَ مَلِيّاً.

وَسارَعا بِحَفْرِ حُفرَةٍ عَميقَةٍ جِدّاً. وَوضَعا فِيهَا مَا اخْتَلَفَا فِي شَأنِهِ. ثُمَّ حَثّا الْخُطَى لِيَعُودَا إِلَى قَرْيَتِهِمَا قَبْلَ الْمَغْرِبِ.

لَمْ يَنَمِ العَرْبِيُّ لَيْلَتَهُ تِلْكَ. لقَدْ كانَ مِنَ الْغَبَاءِ أنْ يَكونَ فِي يَدِهِ كَنْزٌ حَقيقِيٌّ وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ. وَبعْدَ ساعاتٍ مِنَ السُّهادِ، اتَّضَحَتِ الْفِكْرَةُ فِي ذِهْنِهِ: فَنَهَضَ وَاتَّجهَ فِي عَتَمَةِ اللّيْلِ الدّاجِي إلَى الطّرِيقِ الّتِي كانَ سَلَكَهَا عَشِيّةَ الأمْسِ. وَعَثَرَ عَلى النَّخْلَةِ، وأَخْرَجَ بِيَدَيْهِ الْعَارِيَتَيْنِ الْكَنْزَ الثّمينَ مِنْ بَاطِنِ الأرْضِ. وحَرَصَ عَلى رَدْمِ الْحُفرَةِ الّتِي كانَ حَفَرَهَا، وسَارَعَ بِالْعَوْدَةِ إلَى بَيْتِهِ.

وَمِنَ الْغَدِ، بَكّرَ الطّاهِرُ فِي السّاعَاتِ الأُولَى مِنَ النَّهَارِ، فَطَرَقَ بَابَ رَفِيقِهِ. وقالَ لَهُ:

- هلْ أوْحَتْ لَكَ اللّيْلَةُ بِفِكْرَةٍ صَائِبَةٍ؟

فأَجابَ العَرْبِيّ دُونَ أَنْ يَطْرِفَ لَهُ جَفْنٌ:

- نَعَمْ. يَجِبُ علَيْنا أنْ نُعيدَ الصُّرّةَ إلَى صَاحِبِهَا. لَقَدْ كُنْتَ عَلى حَقٍّ. سَنَكونُ سَارِقَيْنِ إنِ احْتَفَظْنَا بِمَا لَيْسَ مِلْكاً لَنَا.

لَمْ يَسْبِقْ لِلطّاهِرِ أنْ سَمِعَ صَديقَهُ يَتَكَلّمُ بِتِلْكَ الطّرِيقَةِ... فقالَ:

- يَسُرُّنِي سَمَاعُ هذا مِنْكَ. لَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنّكَ سَتُفَكّرُ مَلِيّاً فِي الأَمْرِ وَسَتَقْبَلُ بِاقتِرَاحِي. فَلْنَذْهَبْ فِي طَلَبِ القِطَعِ الذّهَبِيَّةِ وَلْنُحَاوِلْ أَنْ نَعْثُرَ على مَنْ فَقَدَهَا.

وَحِينَ بَلَغَا، بعْدَ بُرْهَةٍ، مَوْضِعَ النَّخْلَةِ، شَرَعَ الطّاهِرُ والعَرْبِيُّ فِي الْحَفْرِ. فَحَفَرَا حُفْرَةً... ثُمّ حُفْرَةً ثَانِيَةً... ثُمّ ثالِثَةً... فَلَمْ يَجِدَا شَيْئاً. فأَيْنَ ذَهَبَتِ الصُّرَّةُ؟

- قُلْ لِي يَا "عَرْبي"، أَلَمْ تَأْتِ هنا البارحَةَ؟

وسَارَعَ العَرْبيُّ بالقَوْلِ:

- كُنْتُ سأَطْرَحُ عَلَيْكَ السُّؤالَ نَفْسَهُ. مَا عَلِمَ أَحَدٌ بِهذَا السِّرِّ غَيْرَنَا نَحْنُ الاثْنَيْنِ. وَبِما أَنّي لَسْتُ أنا السَّارِقَ...

لَمْ يَكُنِ الطّاهِرُ يَرْضَى بِأَنْ يُتَّهَمَ هَذا الاتِّهَامَ. فَقالَ:

- لَا يُوجَدُ إلَّا حَلٌّ واحِدٌ. فَلْنَذْهَبْ إلَى الْقَاضِي.

فَأَجَابَ العَرْبيُّ الّذي حَاوَلَ هُوَ أَيْضاً أَنْ يُظْهِرَ بَرَاءَتَهُ:

- هُوَ ذاكَ. فَلْنَذْهَبْ إلَى الْقَاضِي.

ومَثُلَا بَعْدَ ساعَةٍ بَيْنَ يَدَيْ أَهَمِّ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ. واسْتَمَعَ الْقاضِي الْعَجُوزُ، وَقَدْ غَلَبَهُ النُّعاسُ فَاسْتَرْخَى فِي أَرِيكَتِهِ، إِلَى الْخَصْمَيْنِ وهُمَا يَرْوِيَانِ قِصَّتَيْهِمَا الْمُتَنَاقِضَتَيْنِ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَتَّهِمُ صاحِبَهُ بِالسَّرِقَةِ.

وَأَخيراً قَالَ:

- حَسَنٌ. إنْ كُنْتُ قَدْ فَهِمْتُ القَضِيَّةَ، فَأَنْتُمَا قَدْ رَدَمْتُمَا صُرَّةً مَليئَةً بِالْقِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ عِنْدَ جِذْعِ نَخْلَةٍ. وَإذا اسَتَثْنَيْنَاكُمَا أَنْتُمَا، فَإِنَّ الشّاهِدَ الْوَحيدَ عَلى مَا وَقَعَ هُوَ النَّخْلَةُ نَفْسُهَا.

فأجابَ الطّاهِرُ والعَرْبيُّ وَقَدْ أَصابَتْهُمَا دَهْشَةٌ مِنْ هذا الاسْتِنْتاجِ الْغَرِيبِ:

- نَعَمْ، طَبْعاً.

فَأَجابَ الْقَاضِي وهُوَ يَنْهَضُ واقِفاً:

- هَذا حَسَنٌ. سَنَذْهَبُ لِنَسْأَلَ هَذهِ النَّخْلَةَ فِي صَبَاحِ الْغَدِ. بِإِمْكانِكُمَا الانْصِرَافُ الآنَ.

وَتَساءَلَ التَّاجِرانِ عمَّا إِذَا كانَ الْقَاضِي قَدْ جُنَّ؟ وَلَكِنَّ النَّاسَ فِي "زغُومَ" لَا يُجَادِلُونَ مُمَثِّلَ الْعَدْلِ فِي الْمَدينَةِ، مَهْمَا كانَتِ الأَسْبَابُ.

شَعَرَ العَرْبيُّ حينَ عادَ إِلَى بَيْتِهِ بِبَعْضِ الْقَلَقِ. أَيَّةُ حِيلَةٍ يُدَبِّرُهَا الْقَاضِي يَا تُرَى؟ هَلْ يَشُكُّ فِي أَمْرٍ مَا؟ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أنْ يَخْتَرِعَ حِيلَةً. وَقالَ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ لَحظاتٍ مِنَ التَّفْكيرِ: "حَسَنٌ. أَعْرِفُ مَا سَأَصْنَعُ. فَلأَذْهَبْ لِلْبَحْثِ عَنْ مُوسَى".

كانَ مُوسَى، وَهُوَ أَحَدُ إِخْوَةِ العَرْبيّ الْكَثِيرِينَ، مُسْتَعِداً دَوْماً لِقَضاءِ الْحَوائِجِ. فَإِذَا مَنَحْتَهُ بَعْضَ "الدُّورُوَات" فَإِنَّهُ لَنْ يَطْرَحَ أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ.

وَمَا لَبِثَتِ الْخُطَةُ أَنِ اتَّضَحَتْ فِي ذِهْنِ العَرْبِيّ، ما إِنْ رَأَى مُوسَى يَعْبُرُ عَتَبَةَ بَيْتِهِ.

وقَال لَهُ العَرَبِيّ:

- السّلَامُ علَيْكُمْ. سَعِدْتُ بِرُؤْيَتِكَ... إنِّي أَطْلُبُ عَوْنَكَ... غَداً، سَتَذْهَبُ وَتَخْتَفِي فِي حُفْرَةٍ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّخْلَةِ الّتِي سَأُرِيكَ إيَاهَا. وَحِينَ يَسْتَجْوِبُ القَاضِي النَّخْلَةَ، عَلَيْكَ أَنْ تُجِيبَ قَائِلًا: "الطّاهرُ هُوَ اللّصُّ". هَلْ فَهِمْتَ؟

لَمْ يَكُنْ مُوسَى قَدْ فَهِمَ كُلَّ ما فِي كَلامِ أَخِيهِ. فَعَاتَبَهُ العَرَبِي بِرِفْقٍ قائِلًا:

- لَا تَهْتَمَّ لِلأمْرِ. لَيْسَ عَلَيْكَ إلّا أَنْ تَقولَ: "الطَّاهِرُ هُوَ اللّصُّ". وسَوْفَ أُجَازِيكَ عَلَى هَذَا.

كانَتْ هَذِهِ الْكَلِماتُ القَلِيلَةُ كَافِيَةً لإخْمادِ شُكُوكِ مُوسَى وَهَوَاجِسِهِ. وَبَعْدَ ساعَاتٍ قَلَائِلَ، حينَ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، ذَهَبَا عِنْدَ جِذْعِ "الشَّجَرَةِ الشّاهِدَةِ". وَحَفَرَا حُفْرَةً بِقَامَةِ رَجُلٍ، وَاخْتَبَأَ موسَى فِيهَا. وَلَمْ يَكُنْ عَلى العَرَبِي إلّا أنْ يُغَطِّيَهُ بِبَعْضِ الْجَرِيدِ الْمُتَشابِكِ. ثُمَّ أَهَالَ عَلَى الْجَرِيدِ التُّرابَ الْجَافَّ حَتّى لَا يَظْهَرَ أَخُوهُ لِلأَعْيُنِ.

ومِنَ الْغَدِ صَبَاحاً، فِي السّاعَةِ الْمَوْعُودَةِ، كانَ الْقَاضِي والطّاهِرُ والعَرَبِي، بَلْ كُلُّ أهْلِ الْقَرْيَةِ، الّذِينَ عَلِمُوا بِهَذا الاسْتِجْوَابِ الْغَرِيبِ، قَدِ احْتَشَدُوا حَوْلَ النّخْلَةِ.

وصَاحَ الْقَاضي وهْوَ يُداعِبُ جِذْعَ الشَّجَرَةِ:

- أَيَّتُهَا النَّخْلَةُ، لقَدْ رَأَيْتِ اللِّصَّ، فَقُولِي لِي مَا اسْمُهُ؟

وسَمِعَ النّاسُ صَوْتاً مَليئاً بِالثِّقَةِ يَصْدُرُ مِنْ بَيْنِ جُذورِ النَّخْلَةِ وهْوَ يَقُولُ:

- الطّاهِرُ هوَ اللّصُّ.

وَخَيَّمَ صَمْتٌ عَمِيقٌ بَعْدَ أَنْ كانَتْ تَصْدُرُ عَن النّاسِ هَمْهَمَةٌ عَالِيَةٌ. وَشَعَرَ الطّاهِرُ الْمِسْكِينُ بِالْجَزَعِ، فِيمَا كانَ الْعَرَبِيُّ يَبْتَسِمُ بِارْتِياحٍ.

قَالَ الْقَاضِي:

- هَذا حَسَنٌ. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ نَخْلَتَنا سَوْفَ تَتَكَلَّمُ. فَلْنُطَهِّرِ الآنَ هَذا الْمَكَانَ الْمَسْحُورَ. أَحْضِرُوا الْجَرِيدَ.

وسَارَعَ القَرَوِيُّونَ، فَجَمَعُوا الأَغْصانَ الْيَابِسَةَ الّتِي تُحيطُ بِالنَّخْلَةِ. وَقَدَحَ الْقاضِي عُودَ ثِقَابٍ وأَشْعَلَ النَّارَ... والْعَرَبِيُّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَاتِ الْجَزَعِ الشَّديدِ. وَبَدَأَ اللَّهَبُ العَظِيمُ يَشُبُّ فِي الأَغْصانِ.

فَجْأَةً رَأى النّاسُ الأَوْراقَ تَتَطايَرُ فِي كُلِّ الاتِّجاهاتِ، وشَاهَدُوا رَجُلًا يَخْرُجُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ، وَهْوَ يَسْعُلُ وَيَتَمَخَّطُ وَيَبْصُقُ ويَعْطِسُ، بَاحِثاً عَنْ هَوَاءٍ نَقِيٍّ. وعَرَفَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ مُوسَى شَقِيقُ الْعَرَبِيّ.

كَفَّ القَاضِي عَنِ الابْتِسامِ. وَأَشَارَ إِلَى العَرَبِي بِإِصْبَعِ الاتِّهَامِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْجَمْعِ قَائِلًا:

- يُحَاوِلُ الْجُناةُ دَوْماً أَنْ يُظْهِرُوا بَرَاءَتَهُمْ بِاتِّهَامِ غَيْرِهِمْ. لا

رَيْبَ أَنَّكُمْ ظَنَنْتُمْ أَنَّنِي مَجْنُونٌ. لَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَطْمَئِنُّوا. فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّ الأَغْصَانَ لَا تَنْطِقُ. لَقَدْ مَكَّنَتْنِي هَذهِ الْحِيلَةُ مِنْ كَشْفِ الْمُذْنِبِ، أَلَيْسَ كَذَلكَ يَا عَرْبِي؟ لقَدْ كُنْتَ اللِّصَّ، وَكَذَبْتَ حَتَّى تُخْفِيَ جُرْمَكَ. فَاعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِعٌ ذَاتَ يَوْمٍ لَا مَحَالَةَ فِي شَرِّ أَعْمَالِكَ.

وَاسْتَطَاعَ الْقَاضِي بِذَلِكَ حَلَّ اللُّغْزِ. أَمّا الطّاهِرُ فَقَدْ أُثْبِتَتْ بَرَاءَتُهُ طَبْعاً. ثُمَّ مَا لَبِثَ النّاسُ أَنْ عَثَرُوا عَلى مَالِكِ القِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ الّذِي عَرَفَ كَيْفَ يُجَازِي الرَّجُلَ النَّزِيهَ بِكُلِّ سَخَاءٍ.

إبْراهِيمُ وَابنَةُ الشَّيْخِ

وَفِيهَا نَرَى شَابّاً يُعْمِلُ الْحِيلَةَ حَتّى يَتَزَوّجَ ابنَةَ سَيِّدِ الصَّحْراءِ، ثُمَّ نَرَاهُ يَقَعُ هُوَ نَفْسُهُ ضَحِيّةَ حِيلَةٍ أَشَدَّ دَهَاءً.



"العِرْقُ الشّرْقِيُّ الْكَبِيرُ" هُوَ بلَدُ الْعَطَشِ، هُوَ بَلَدُ الْمَناطِقِ الشَّاسِعَةِ الّتِي تُغَطِّيهَا الرّمالُ، هُوَ فَضاءُ الشّمْسِ. والرّيحُ هِيَ الْعُنْصُرُ الْوَحِيدُ الّذِي يَتَحَرَّكُ فِي هَذَا الْعَالَمِ السَّاكِنِ، وهِيَ الّتِي تُهَيْمِنُ هَيْمَنَةَ الْمَلِكِ وَتَمْنَحُ الصّحْراءَ السَّاكِنَةَ صَوْتاً. لَكِنّ الْعِرْقَ لَيسَ خَالِياً مِنَ السُّكَّانِ. فَفِيهِ يَعِيشُ الْبَدْوُ مُنْذُ قُرُونٍ خَاضِعِينَ لِتَحَوُّلَاتِ الْفُصُولِ بَاحِثِينَ عَنِ الْكَلَإِ الّذِي تَحتاجُ إِلَيْهِ دَوَابُّهُمْ لِتَحْيَا.

وَقَدْ دَارَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ الّتِي سَنَحْكِيهَا مُنْذُ نَحْوِ مِئَتَيْ عَامٍ، فِي عَصْرٍ كانَتِ الصّحْراءُ فِيهِ تَصْنَعُ أُناساً أَفْضَلَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ تَصْنَعَهُ السُّجُونُ بِلَا رَيْبٍ!

كانَ مُخَيَّمُ قَبيلَةِ "الفَوَازِيزِ" مُقَاماً قُرْبَ بِئْرٍ فِي إِحْدَى أَكْبَرِ الْمِساحاتِ الْخَضْراءِ الّتِي تَقَعُ على بُعْدِ بِضْعَةِ أَمْيالٍ مِنَ الْكُثْبانِ

الرَّمْلِيَّةِ. وَكانتِ الْخِيامُ مُتَجَمِّعَةً حَوْلَ الْخَيْمَةِ الكُبْرَى، وهي الْخَيْمةُ التِي يُقيمُ فيها شَيْخُ القَبِيلَةِ. كانتْ أَسْيِجةٌ عالِيَةٌ مِنَ الْحَلْفَاءِ تَحْمِيهَا مِنَ الرِّيحِ. وَكانَتِ الْكُثْبانُ الرَّمْلِيَّةُ مِنْ حَوْلِهَا تُشْبِهُ الأَمْوَاجَ العَالِيَةَ، وَالْكَثِيبُ يَرْتَفِعُ خَلْفَ الْكَثِيبِ إِلَى نِهَايَةِ الأُفُقِ مُكَوِّناً عُقَداً لَا انْفِرَاطَ لَهَا، وَبَحْراً يَضِيعُ فِي الأَبْعادِ الْمُبْهَمَةِ الْغَائِمَةِ.

خَرَجَ إِبْراهِيمُ مِنَ الْخَيْمَةِ. كانَ شاباً ذَا قَامةٍ فَارِعَةٍ. نَظَرَ إِلَى الأُفُقِ. كانَ وَالِدُهُ قَدْ تُوُفِّيَ مِنْذُ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ. فأَصْبَحَتْ مَصَائِرُ قَوْمِهِ، مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ فَصَاعِداً، بَيْنَ يَدَيْهِ.

وكَانَ النّاسُ يَقُولُونَ إِنَّ إبْراهِيمَ شَابٌّ صَبُورٌ وشُجَاعٌ، وَلَكِنَّهُ يَمْتَلِكُ سَجَايَا أُخْرى رَغْمَ أَنَّهُ مَا يَزَالُ شَاباً.

وَكانتْ سَائِرُ الْقَبَائِلِ تَشْهَدُ بِحِكْمَتِهِ ورَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وصَوابيَّةِ آرَائِهِ. كَانَ يُحْسِنُ تَهْدِئَةَ الْخَواطِرِ عِنْدَ الْخُصُومَاتِ، وَيُسَاعِدُ الْمُحْتَاجِينَ. لَكِنَّ الأَهَمَّ مِنْ هذا أَنَّهُ كانَ يَحْتَرِمُ كُلَّ التَّقَالِيدِ. فَقَدْ كانَ "شَيْخَ الْعُرْفِ" وَحامِي التَّقَالِيدِ. وَهْوَ مَا جَلَبَ لَهُ احْتِرامَ كِبَارِ السِّنِّ وَقَوَّى مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُمْ وَمَتَّنَ سُلْطَتَهُ عَلى الْجميعِ.

جَمَعَ إِبْراهِيمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بعْضَ الرِّجالِ. لَقَدْ تُرِكَتِ الإِبِلُ فِي الْمَسَاءِ تَسْرَحُ حُرَّةً حَتَّى تَرْعَى بَعْضَ الْكَلَإِ فِي الْوَاحَةِ. وَقَدْ رَجَعَ مُعْظَمُهَا إِلَى الْمُخَيَّمِ، لكِنَّ بَعْضَها ابْتَعَدَ عَنِ الْمِساحاتِ الْخَضْراءِ الْقَرِيبَةِ. وقَدْ آنَ الأَوانُ لِتَجْمِيعِهَا وَسَوْقِهَا إِلَى الْبِئْرِ حَتَّى

تَشْرَبَ. وَكانَ إبْراهيمُ يُحِبُّ أَنْ يَجُولَ بيْنَ الكُثْبانِ "وَالصُّحُونِ" الَّتِي يَعْرِفُ شِعَابَهَا وَمَخَاطِرَهَا مَعْرِفَةً جَيِّدَةً. فَقَرَّرَ أنْ يَذْهبَ بِنَفْسِهِ بَحْثاً عنِ الدَّوَابِّ الشَّارِدَةِ.

كانَ إبْراهيمُ ذَا فِرَاسَةٍ فِي تَقَفِّي الآثَارِ تُثِيرُ الإعْجابَ. فَلَمْ تَكُنْ أَسْرارُ الرِّيحِ والْحَيَوانَاتِ والنَّبَاتاتِ تَخْفَى عَلَيْهِ. فكانَتْ آثارُ الطَّرِيقِ الّتي تَسْلُكُها الْحَشَرَةُ والّتي تَكادُ لَا تَظْهَرُ لِلْعِيانِ، وَشَكْلُ الأَثَرِ، ووُجُودُ غُصْنٍ مَكْسورٍ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ مُؤشِّراتٌ دَالَّةٌ. وَاهْتَدَى بِيُسْرٍ إلَى مَواضِعِ كَثِيرٍ مِنَ الْجِمالِ الّتِي كانَتْ تَسْرَحُ بِبُطْءٍ بَحْثاً عَنِ الْكَلَإِ. وبَيْنَمَا كانَ مُتَّجِهاً نَحْوَهَا، فُوجِئَ بِرُؤْيَةِ خِيَامٍ عَلى الْمُرْتَفعاتِ تكَادُ تَتَخَطَّى ذُرْوَةَ الْكُثْبَانِ...

مَنْ هِيَ الْقَبِيلَةُ الّتِي كانَتْ تُخَيِّمُ هَناكَ؟ تَرَكَ الإبِلَ وَشَقَّ تَلَّةَ الرَّمْلِ الّتِي تَفْصِلُهُ عَنِ الدُّوَّارِ[1]، فَوَجَدَ نَفْسَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ رَاعٍ عَجُوزٍ مُقْعٍ بِالقُرْبِ مِنْ نَارٍ تَشْتَعِلُ. كانَ الرَّجُلُ العَجوزُ يَتَعَهّدُ النَّارَ بِغُصْنٍ مِنَ الوَزَّالِ. وكانَ قَدْ نَصَبَ إبْرِيقاً ذَا طِلاَءٍ أَزْرَقَ عَلى الْجَمْرِ، وَبِقُرْبِهِ كَأْسَانِ مُلَوَّنانِ بِأَلْوَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ نُصِبَا فَوْقَ الرّمالِ. وَحِينَ لَمَحَ الرّاعِي إبْرَاهِيمَ، نَهَضَ وَأَلْقَى عَلى كَتِفَيْهِ طَرَفاً مِنْ أَطْرافِ بُرْنُسِه بِحَرَكَةِ تَرْحِيبٍ. وَأَمْسَكَ بِالإبْرِيقِ وَصَبَّ الشَّايَ بِرِفْقٍ فِي الْكَأْسَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ الْمَائِلَيْنِ إلَى الصُّفْرَةِ.

(1) الدّوّار: تجمّع صغير من المنازل أو الخيام المتفرّقة.

- السَّلامُ عَلَيْكَ يَا إبْراهِيمُ. لَقَدْ أَحْسَنْتَ بِالْمَجِيءِ إلَى هُنَا. . . أَلَمْ تَسْتَفْتِ قَلْبَكَ قَطُّ؟ هَلْ أَنْتَ رَاضٍ عَنْ هَذهِ الْحَياةِ الْمُظْلِمَةِ الّتِي تَحْيَاهَا؟

إسْتَغْرَبَ إبْراهِيمُ حِينَ وَجَدَ أنَّ ذلِكَ الرَّجُلَ يَعْرِفُهُ، لكِنَّهُ تَناوَلَ مِنْهُ الْكَأْسَ وَجلَسَ قُرْبَ النَّارِ. لَا أَحَدَ فِي الصَّحْراءِ يَرْفُضُ أنْ يُعْطَى الشَّايَ. وَشَرِبَ بِطَرِيقَةٍ احْتِفَالِيَّةٍ الكُؤُوسَ الثَّلَاثَةَ الْمَعْهُودَةَ الّتِي كانَ يَمُدُّهَا إلَيْهِ الرَّاعِي العَجُوزُ الوَاحِدَ تِلْوَ الآخَرِ. وأضَافَ الرّاعِي وَهْوَ يَرْمُقُ إبْراهِيمَ بِنَظْرَةٍ غَرِيبَةٍ:

- لَقَدْ أَحْسَنْتَ بِالْمَجِيءِ إلَى هُنا لأنَّ اللهَ رَحِمَ قَلْبَكَ الْخَاوِيَ. . . لَقَدْ أَمْضَيْتَ السِّنِينَ الأَخِيرَةَ مِنْ حَياتِكَ فِي ظُلْمَةٍ لِأَنَّ لَا أَحَدَ يَنْتَظِرُ عَوْدَتَكَ فِي الْخَيْمَةِ. . . وَهُنَا، فِي هَذا الْمُخَيَّمِ تَعِيشُ فَتَاةٌ سَتَمْنَحُكَ السَّعَادَةَ. . . إسْمُهَا عَائِشَةُ. . . وَعَلَيْكَ أنْ تَفْتَحَ الأَبْوابَ الَّتِي تُؤَدِّي بِكَ إلَيْهَا. . .

وَظَلَّ إبْراهِيمُ لِبُرْهَةٍ مُنْدَهِشاً أَمَامَ كَلامِ الْعَجوزِ الّذِي كانَ يَبْدُو عَارِفاً بِكُلِّ شُؤُونِهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ:

- كَيْفَ عَلِمْتَ بِأَنَّ هذهِ الْفَتَاةَ سَتُسْعِدُنِي؟ وَمَنْ أَدْرَانِي أَنَّهَا فِي انْتِظارِي؟

- لَقَدْ قَرَأْتُ ذَلِكَ فِي النُّجُومِ. حِينَ تَراهَا لَنْ تَسْتطِيعَ عيْنَاكَ الْمَفْتُونَتَانِ أنْ تَنْسَيَاهَا أبَداً، وحِينَ تَبْتَعِدُ عَنْها، سَيَدْمَى قَلْبُكَ. . . إنَّهَا جَوْهَرَةٌ فَرِيدَةٌ، وَيَاقُوتَةٌ نَادِرَةٌ، وَتَمِيمةٌ ثَمِينَةٌ تَسْتَأْهِلُ كُلَّ انْتِباهٍ،

وَتَسْتَحِقُّ حُبّاً لَا خِيانَةَ فيهِ. إنْ كُنْتَ لَا تُصَدِّقُنِي، فَوَاصِلِ الْبَحْثَ عَنْ إِبِلِكَ. أنا عائِدٌ إلَى وَالِدِهَا، وهْوَ مَوْلَايَ "السَّيِّدُ صَادِقٌ". فَلْيَمُنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِالصِّحَّةِ وَالْهَناءِ.

وَجَمَعَ الرَّاعِي الْعَجوزُ الإبْريقَ والْكأْسَيْنِ، وَأَطْفَأَ النَّارَ وَيَمَّمَ شَطْرَ الْمُخَيَّم.

لَمْ يكُنْ بِيَدِ إبْراهيمَ شَيْءٌ يَفْعَلُهُ غَيْرَ التَّفْكيرِ. إنَّهُ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ والْحَكيمُ الّذِي لَمْ يَسْبِقْ لأَحَدٍ أنْ خَدَعَهُ. لكِنَّ هَذا اللِّقاءَ وهَذِهِ الإيحاءَاتِ الْمُفاجِئَةَ جَعَلَتْهُ شَدِيدَ الاضْطِرابِ. كانَ فِي نَظْرَةِ هَذا الرَّجُلِ شَيْءٌ مِنَ الغُمُوضِ... وَتَذَكَّرَ وَالِدَتَهُ. كانَتْ تَحْكِي لَهُ قِصَصاً عَنِ العَرّافِينَ الّذِينَ يَسْلِبُونَ أَلْبَابَ النَّاسِ... لَا... إنّهُ لَا يُريدُ أنْ يُصَدِّقَ ذَلِكَ. ثُمَّ إنّهُ كانَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ زِمامَ أَمْرِهِ وَلَا أَحَدَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْعَوْدَةِ.

وَفِيمَا كانَ إبْراهيمُ يَسْتَعِدُّ لِلْعَوْدَةِ، رَاجَعَ نفْسَهُ. لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ فَكَّرَ فِي الزَّواجِ إلَى حَدِّ الآنَ، وَإِنْ كانَ فِي سِنِّ الزّواجِ. أَتَفْرِضُ عَلَيْهِ العَادَاتُ وَالْمَهَامُّ الْجَديدَةُ الّتِي كُلِّفَ بِهَا أنْ يَتَزَوَّجَ؟ وَلْنَفْتَرِضْ أَنَّ الرَّجُلَ العَجُوزَ قَدْ نَطَقَ بِالصَّوابِ؟ لِنَفْتَرِضْ أنَّ الْمَرْأَةَ الّتِي يَحْلُمُ بِها تَعِيشُ على بُعْدِ خُطُواتٍ مِنْ هُنا؟ كانَ قَريباً جِدّاً مِنَ الْمُخَيَّمِ... لَوِ انْتَظَرَ حَتّى يُرْخِيَ اللَّيْلُ سُدُولَهُ، لاسْتَطاعَ التَّسَلُّلَ إلَى خَيْمَةِ الشَّيْخِ والاقْتِرابَ مِنْ عائِشَةَ، وَبِذلكَ يَسْتَطيعُ أنْ يَحْكُمَ بِنَفْسِهِ عَلى مِقْدارِ جَمَالِهَا.

وانْتَظَرَ انْقِضاءَ النَّهارِ بِفَارِغِ الصَّبْرِ.

كانَتْ رَوْعَةُ الْمَسَاءِ تَفْتِنُهُ دَائماً. وَكانتْ سَحائِبُ الأُفُقِ قدْ صَبَغَتْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ الأخيرَةُ بِاللَّوْنِ الأحْمَرِ واللَّوْنِ الذَّهَبِيِّ. وكانَ هَذا الْمَشْهَدَ يَبُثُّ فِيهِ سُروراً لَا حَدَّ لَهُ. فَتَعَالَى دُعاؤُهُ حامِداً اللهَ الّذِي مَدَّ فِي أَنْفَاسِهِ حَتّى يَشْهَدَ هذِهِ اللَّحْظَةَ الرّائِعَةَ.

وَارْتَمَتِ الشَّمْسُ أَخِيراً بَيْنَ الكُثْبانِ. وَاحْتَلَّ الْقَمَرُ، أخُوهَا الأَبْيَضُ، مَكانَهَا فِي رُكْنِ السَّمَاءِ. وَاسْتَحَالَ الرَّمْلُ إِلَى لَوْنٍ فِضِّيٍّ... أَمَّا إِبْراهِيمُ فَقَدْ تَسَلَّلَ بَيْنَ الْخِيامِ بِهُدُوءٍ حَتَّى بَلَغَ أَكْثَرَ الْخِيامِ فَخَامَةً، وَهْيَ خَيْمَةُ "الشَّيْخِ صَادِقٍ". وَكانَ مَا يَزالُ يَجْهَلُ كَيْفِيَةَ بُلُوغِ عَائِشَةَ. لَكِنْ فَجْأَةً ارْتَفَعَ جَانِبٌ مِنَ الْخَيْمَةِ وخَرَجَ جَمْعٌ مِنَ النِّساءِ مِنْ ظِلِّ الْخِباءِ. فَبَسَطَ إبْراهيمُ طُرْبُوشَ بُرْنُسِهِ فَوْقَ جَبِينِهِ وَاقْتَفَى أَثَرَ خُطُوَاتِهِنَّ على مَبْعَدَةٍ مِنْهُنَّ. وسُرْعانَ مَا تَفَرَّقَتِ النِّسْوَةُ فِي خِيام عديدَةٍ بَعْدَ بِضْعَةِ أَمْتارٍ مِنَ الْمَسِيرِ. وَدُونَ تَرَدُّدٍ اقْتَفَى إبْراهيمُ أَثَرَ الْمَرْأَةِ الأَخِيرَةِ... لَمْ يَرَ وَجْهَهَا. لَكِنَّ هَيْئَتَها وَمِشْيَتَها كانَتَا تَنِمَّانِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّقَّةِ وَالأَناقَةِ... تَرَكَ لَهَا الْوَقْتَ الْكَافِيَ حَتَى تَدْخُلَ، وَاخْتَبَأَ فِي طِيِّ السِّتَارَةِ. وَأخِيراً... هَا هِيَ الْجَمِيلَةُ عَائِشَةُ تَنْضُو عَنْهَا خِمَارَهَا فِي ضَوْءِ سِراجٍ صَغِيرٍ وُضِعَ عَلى الأَرْضِ. وَحَبَسَ إبْراهِيمُ أنْفاسَهُ... لَقَدْ كانَ جَمالُ الْفَتاةِ الَّتِي اكْتَشَفَها بِلَا نَظِيرٍ: بِشَعْرِهَا الطَّوِيلِ الْفَاحِمِ السَّوادِ وَبِوَجْهِهَا وَعَيْنَيْهَا وَقَامَتِهَا... كُلُّ شَيْءٍ فيهَا كانَ غَايَةً فِي الْكَمالِ.

وَبَقِيَ إبْراهيمُ دَقائِقَ طَويلَةً تَحْتَ تَأْثِيرِ سِحْرِ هَذا التَّجَلِّي. ثُمَّ إنَّهُ غادَرَ مَكْمَنَهُ مُيَمِّماً شَطْرَ مُخَيَّمِهِ. كانَ قَدْ نَسِيَ أَمْرَ إِبِلِهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَشْغَلُ بالَهُ الآنَ غَيْرَ فِكْرَةٍ واحِدَةٍ: هِيَ أَنْ تَكونَ عائِشَةُ زَوْجَتَهُ.

تَمَدَّدَ الشّابُّ عَلى زَرْبِيَّتِهِ[1]، لَكِنْ لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ طِوالَ اللَّيْلِ. لَقَدْ سَمِعَ النّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ "الشَّيْخِ صادِقٍ". كانَ رَجُلاً ذا ثَرْوَةٍ وَنُفوذٍ. وَلِكَيْ يَتَزَوَّجَ الْمَرْءُ مِنِ ابْنَتِهِ، عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ هَدايا تَليقُ بِهَذِهِ الْمَكانَةِ الْمَرْمُوقَةِ. لَكِنَّهُ هُوَ، إبْراهيمُ، لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ ثَرْوَةً كَبِيرَةً. لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ غَيْرَ بَعْضِ الإِبِلِ، أَمّا الذَّهَبُ والْحِجارَةُ الْكَرِيمَةُ فَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُها. وحَتّى لَوْ أَسْعَفَهُ الْحَظُّ السَّعِيدُ بِأَنْ يَمْتَلِكَ ثَرَواتٍ مِثْلَ هَذِهِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ أَشْهُراً طَوِيلَةً قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الزِّفافُ. هَذا ما تَقْتَضيهِ الأَعْرافُ والتَّقاليدُ.

وَتَذَكَّرَ إبْراهِيمُ كَلامَ العَجُوزِ بَيْنَ تِلالِ الرِّمالِ... "حِينَ تَبْتَعِدُ عَنْها يَدْمَى قَلْبُكَ"... لَمْ يَسْبِقْ أَنْ كانَ احْتِرامُ التَّقاليدِ أَمْراً يَشُقُّ عَلَيْهِ مِثْلَما يَشُقُّ عَلَيْهِ الآنَ... ومَا كانَتِ الأَعْرَافُ الَّتِي سَنَّهَا أَسْلافُهُ عَسِيرَةَ الاتِّباعِ إِلَى هَذا الْحَدِّ قَطُّ.

وقَضَى بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِ يَرْسُمُ فِي ذِهْنِهِ أَلْفَ حِيلَةٍ تُوصِلُهُ إِلَى مُبْتَغاهُ. فَلَمْ يَكَدِ الصُّبْحُ يَتَنَفَّسُ حَتَّى كانَ قَدِ اتَّخَذَ قَرارَهُ. أَصْبَحَ يَعْرِفُ مَا يَصْنَعُ.

(1) الزَّربية: السجادة

ومَا إنْ بَدَأَتِ الشَّمْسُ الْمُشْرِقَةُ تَرْتَفِعُ فِي الأُفُقِ وَتُلَوِّنُ قِمَّةَ خَيْمَتِهِ بِاللَّونِ الأَحْمَرِ حَتّى اسْتَدْعَى اثْنَيْنِ مِنْ أفْضَلِ أَتْباعِهِ. وخَاطبَهُما قائِلًا:

- يَا عَمّارُ الطّاهرُ. اسْلُكِ الطّريقَ الْجَنُوبِيَّةَ، وسَتَجِدُ فِي طريقِكَ مُخَيَّم "الشّيْخِ صادِقٍ". انْقُلْ إِلَيْهِ سَلَامَ قَبِيلَتِنَا وَبَلِّغْهُ هذهِ الدَّعْوَةَ: سَنُقِيمُ لَهُ غداً مَأْدُبَةً إكْراماً لَهُ. وَلْيَكُنْ هُوَ وَأَهْلُهُ وَمُقاتِلُوهُ عَلى الرَّحْبِ والسَّعَةِ بَيْنَنَا. هَيّا... اِنْصَرِفْ على عَجَلٍ... أمَّا أَنْتَ يَا مُبَارَكُ فَاخْتَرْ عِشْرِينَ رَجُلًا، وَلْيُجَهِّزُوا مَهارِيَّهُمْ، وَلْيَكُونُوا على أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِيَوْمِ الْغَدِ. اِتْبَعْنِي. سَأُخْبِرُكَ بِمَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ...

ورَجَعَ عَمّارُ الطّاهرُ بَعْدَ ساعاتٍ بِجوابِ "الشّيْخِ صَادِقٍ". فقَدْ وَافَقَ الشّيخُ العَجوزُ الّذِي فُوجِئَ بالدَّعْوَةِ وأثَارَتْ فِي نَفْسِهِ الرِّضا، وَأَعْلَنَ قُدومَهُ فِي صَباحِ الغَدِ.

وَمَع أَوّلِ خُيوطِ الفَجْرِ، اِنْهَمَكَ مُخَيَّمُ "الفَوازيزِ" كُلُّهُ، بِأَوامِرَ مِنْ إبراهِيمَ، فِي نَشاطٍ لَا مَلَلَ فيهِ ولَا كَلَلَ. وَعِنْدَمَا بَلغَتِ الشّمْسُ كَبِدَ السَّماءِ، كانَتِ القُدُورُ ساخِنَةً وَالْخَروفُ جَاهِزاً. فَقَدْ كانَتْ عَشَراتُ الأَطْباقِ الْمُتَبَّلَةِ وَالْمُحلّاةِ وَالْمُمَلَّحَةِ جاهِزَةً فِي انْتِظارِ الْمَدْعُوِّينَ. وكانَ العازِفونَ والرَّاقِصونَ قَدِ ارْتَدَوْا مَلَابِسَ الاحْتِفالِ، وَالْمُقاتِلُونَ قَدِ انْتَصَبُوا بِأَزْيائِهِم الْعَسْكَرِيَّةِ.

وَفَجْأَةً سُمِعَ صِياحٌ يَتَعالَى مِنْ بَعيدٍ:

– هَا هُمْ قَدْ جاؤُوا.

وَتَراءَتْ مِنْ بَعيدٍ قافِلةٌ طَويلَةٌ تَقْتَرِبُ شَيْئا فَشَيْئاً، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا "الشَّيْخُ صَادقٌ" مُتَّشِحاً بِالْبَياضِ، وَقَدِ اتَّخَذَ وَضْعاً مَهِيباً فَوْقَ جَمَلِهِ الْمُخَصَّصِ لِمِثْلِ هَذهِ الْمَواكِبِ.

وَتَقَدَّمَ إبْراهيمُ لاسْتِقْبالِ ضَيْفِهِ حامِلًا الْحَليبَ والتَّمْرَ كمَا يُمْلِي الْعُرْفُ، وَهْوَ يَبْحَثُ بِنَاظِرَيْهِ عَنْ حَبِيبَتِهِ.

عِنْدئِذٍ، آنَ لِلْحَفْلَةِ أَنْ تَبْدَأ. كانَتْ حَفْلَةً رائِعةً. وَاسْتَغْرَقَ الإِطْعامُ فِيها سَاعاتٍ طَوِيلَةً. وكانَ النّاسُ جَميعاً مُتَحَمِّسِينَ لِلْإِنْشادِ الّذِي يَتَنافَسُ فيهِ شُعَراءُ الْقَبِيلَتَيْنِ مُشِيدِينَ بِالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ.

وَأخيراً أَقْبَلَ اللّيْلُ. فَأُضِيئَتِ الْمَشاعِلُ، وَأُفْسِحَ الْمَجالُ لِلرّاقِصاتِ اللّوَاتِي جَثَوْنَ وَقَدْ تَلَأْلَأَتْ حُلِيُّهُنَّ بِأَلْفِ بَرِيقٍ وَضِياءٍ عَلى فَسَاتِينِهِنَّ السَّوْداءِ. ثُمّ بَدَأْنَ الدَّوَرانَ حَوْلَ أَنْفُسِهِنَّ عَلى وَقْعِ الطَّبْلِ وَإِيقَاعِ الغِناءِ الشَّجِيِّ وتَصْفِيقِ الأَيْدِي. ثُمَّ نَهَضْنَ وَهُنَّ يَضْرِبْنَ بِشُعُورِهِنَّ الْهَواءَ إلَى الأَمَامِ وإلَى الوَراءِ فِي دَوَرانٍ مُتَسَارِعٍ. وَبَعْدَ كُلِّ قَفْزَةٍ جَميلَةٍ، تُزَغْرِدُ النِّسْوَةُ، ويَطْرُقُ الرِّجالُ بِأَرْجُلِهِمْ علَى التُّرابِ اليَابِسِ مُحْدِثِينَ إيقاعاً.

وَإِذَا بِرَجُلٍ آتٍ من بَعيدٍ، يَشُقُّ جَمْعَ الرَّاقِصاتِ وَيَنْحَنِي أمَامَ "الشَّيْخِ صادِقٍ". فَخَيَّمَ علَى الْحاضِرِينَ صَمْتٌ رَهِيبٌ.

وَصاحَ الرَّجُلُ قائِلًا:

– سَيِّدِي... سَيِّدي... لَقَدْ أُغِيرَ عَلى مُخَيَّمِنَا. وَنُهِبَتْ كُلُّ

إبِلِنا... وَنِعاجِنا... وَدَوَابِّنَا... لَقَدْ نَهَبُوا كُلَّ مَا تَمْلِكُ.

فأصابَ "الشَّيْخَ صادِقاً" وُجومٌ لِبُرْهَةٍ. ثُمَّ نَهَضَ قَافِزاً بِحَرَكَةٍ وَاحدَةٍ. وفِيمَا كانَ يَستَعِدُّ لِلْكلَامِ، أَمْسَكَ إبراهيمُ يَدَهُ وقالَ لَهُ بِلَهْجَةِ الْوَاثِقِ:

- لَا تَبْتَئِسْ يَا "شَيْخُ صادق". فَلَنْ يَذْهَبَ الْمُغِيرُون بَعيداً. أنَا خَبِيرٌ بِهذا الْمَكانِ... وَسَأُعِيدُ إلَيْكَ قُطْعَانَكَ.

ثُمَ خَاطَبَ الشّاهِدَ قائِلًا:

- هَلْ تَعَرَّفْتَ الْمُغِيرينَ؟ وَفِي أَيِّ اتِّجاهٍ رَحَلُوا؟

فَأَجابَهُ الرَجُلُ، الّذِي كانَ ما يَزالُ خائِفاً، بِأَنَّهُمْ مُقاتِلونَ وَبِأَنَّهُمْ هَرَبُوا بِاتّجاهِ الشَّرْقِ.

فأصْدَرَ إبراهيمُ بَعْضَ الأَوامِرِ. وفِي ظَرْفِ دَقائِقَ مَعْدُودَةٍ، كانَ هُناكَ فَريقٌ مِنَ الرِّجالِ عَلَى ظُهُورِ الْجِمالِ جاهِزٌ للذَّهابِ في غَزْوَةٍ.

وأَضافَ إبراهيمُ مُخاطِباً ضَيْفَهُ:

- تَستطيعُ البَقَاءَ وأَتْباعَكَ هُنا هَذهِ اللَّيْلَةَ. وَسَنُجَهِّزُ لَكُمُ الْخِيامَ.

ثُمَ صاحَ وَهُوَ يَرْكَبُ مَطِيَّتَهُ:

- أَعِدُكَ بِاسْتِرْجاعِ مُمْتَلَكاتِكَ مِنَ الآنَ إلَى غَايةِ الْغَدِ. ولَنْ تَبْقَى هَذِهِ الْجَريمَةُ دُونَ عِقابٍ.

قالَ هذا. ثُمَّ غابَ فِي ظُلْمَةِ اللّيْلِ.

تَأَثَّرَ "صادِقٌ" بِعَزْمِ الشّابِّ وسُرْعانَ مَا شَعَرَ تِجاهَهُ بِالتَّقْدِيرِ، وَرَغْمَ أنّهُ كانَ ذَا طَبِيعَةٍ لَا مُبالِيَةٍ، فَإنَّ إبْراهيمَ كانَ يُوحِي لَهُ بالثِّقَةِ.

عَيّنَ الشّيخُ العَجوزُ بَعْضَ الْمُقاتِلِينَ كَيْ يَرْجِعُوا إلَى مُخَيَّمِهِ ويَحْفَظُوا الأمْنَ. ثُمَّ إنّهُ أقامَ صُحْبَةَ حَاشِيَتِهِ داخِلَ الْخِيامِ الّتِي نَصَبَها "الْفَوازِيزُ"، وَانْتَظرَ عَوْدَةَ القَائِدِ الشَّابِّ.

عِنْدَ طلُوعِ الصَّبْحِ، أَعْلَنَ أحَدُ الْحُرّاسِ الْمُتَرَقِّبينَ وُصولَ إبْراهيمَ. كانَ يَتَقَدَّمُ رجالَهُ الّذينَ يَقُودُونَ أمَامَهُمْ قَطيعاً اخْتَلَطَ فِيهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الإبِلِ بِعَدَدٍ مِنَ النِّعَاجِ يُقارِبُهُ. فَعَمَّ الْمُخَيَّمَ فَرَحٌ غَامِرٌ، وَتَقَدَّمَ إبْراهيمُ إلَى أنْ وَصَلَ إلَى "الشّيْخِ صادِقٍ"، وَجَثَا عَلى رُكْبَتِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ وانْحَنى أمَامَهُ قائِلًا:

– هَا هِيَ مَوَاشِيكَ قَدْ رُدَّتْ إلَيْكَ. لَكِنِّي أَخْفَقْتُ فِي الإيفَاءِ بِوَعْدِي وَلَمْ أَسْتَطِعِ الْقَبْضَ على الْمُغِيرِينَ. وَإِنِّي أَلْتَمِسُ عَفْوَكَ.

فَأَجابَهُ صادِقٌ قائِلًا:

– لا دَاعِيَ لِذلِكَ. لَقَدِ اسْتَرْجَعْتُ قَطيعِي، وهَذا هُوَ الْمُهِمُّ. فَالْمَواشِي، عِنْدَنَا نَحنُ الرُّحَّلَ، أَغْلَى مَا نَمْلِكُ. وَأَنْتَ تَعْلَمُ هذا. والأَجْدرُ بِنَا أنْ نَحْتَفِلَ بِهذا النّجاحِ الّذِي أعَادَ إلَيَّ ثَرْوَتِي.

فأُقيمَتِ الْحَفْلَةُ مِنْ جَديدٍ بِحُضورِ كُلِّ أتْباعِ "الشّيخِ

صادقٍ". ومِنْ بَيْنِ النِّساءِ الْمُتَبَرْقِعاتِ لَمْ يَعْجِزْ إبْراهيمُ عَنِ التَّعَرُّفِ إلى قَوامِ عائِشَةَ الْمَهيبِ الّذي أَنْساهُ الأَكْلَ والشُّرْبَ... لَقَدْ صدَقَ الرّاعِي فِي ما رَأى، فَقَدْ كانَ إبْراهيمُ يَعِيشُ فِي العَتَمَةِ طِوالَ السّنينِ الأخِيرَةِ، وسَتَكونُ عائِشَةُ مِنَ الآنَ فصاعِداً نُورَهُ.

تَكلَّمَ "الشّيخُ صادِقٌ" أثْناءَ الأكْلِ، وخَاطَبَ إبْراهيمَ بِإجْلالٍ قائِلًا:

- إنّهُ يَوْمُ فَرْحَةٍ، وَلَكَ دَيْنٌ فِي رَقَبَتِي. فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ، وَسَوْفَ أُحَقِّقُهُ لكَ.

كانَتْ هَذهِ هِيَ الفُرْصَةُ الّتِي طَالَمَا انْتَظَرَها إبْراهِيمُ. فَقالَ:

- أيُّها الشّيْخُ الْجَليلُ، لَقَدْ قَدّرَ اللهُ أنْ تَتَقاطَعَ سُبُلُنَا، وقَدْ رَسَّخَ احْتِرَامَنَا الْمُتَبادَلَ سَبَبٌ نَبِيلٌ. أَلَا تَرى فِي ذَلِكَ عَلَامَةً؟ فَلِمَ لَا تَجْتَمِعُ مَصائِرُنا؟ أنَا أَعْلَمُ أنّ لَدَيْكَ ابْنَةً بِكْراً، وقَدْ آنَ لِي أنْ أَتّخِذَ زَوْجَةً. وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ بِمَنْزِلَتِي وبِقِيمةِ رِجالِي. وَهَذا يَعْنِي أَنَّ ابْنَتَكَ سَتَكُونُ بِأَمَانٍ مَعِي. وَبِإمْكَانِكَ أنْتَ التّعْويلُ على مُساعَدَتِي دائِماً.

فَبِماذَا سَيُجيبُ "الشّيخُ صادقٌ" عَلى هَذا الطَّلَبِ؟ إنّهُ لَمْ يَكُنْ بِالطَّبْعِ يَتَوَقَّعُ طَلَباً بِالزّواجِ؟ لَكِنَّ الدَّيْنَ وَاجِبُ الْقَضاءِ، كَمَا أنّه كانَ يُدْرِكُ، بِاعْتِبارِهِ قائِداً حَكِيماً، فَوائِدَ هذِهِ الصِّلَةِ. وَبَعْدَ لَحظاتٍ مِنَ الصَّمْتِ بَدَتْ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ، وَافَقَ "الشَّيخُ صادقٌ". لَكِنَّ إبْراهيمَ لَمْ يَكْتَفِ بِهذا الطَّلَبِ، فَخاطَبَ الشّيْخَ قائِلًا:

- عَلَيَّ أَنْ أَرْحَلَ باتِّجاهِ الطَّرِيقِ الْجَنُوبِيِّ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، وَعَلَيْنا أنْ نُقِيمَ الزِّفافَ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ... فَلِمَ لَا يَكونُ الزِّفافُ بِدايةً مِنْ هَذا الْيَوْمِ، قَبْلَ رَحِيلِكَ؟

فُوجِئَ "الشّيخُ صادِقٌ" بَعْضَ الْمُفاجَأةِ بِقِلَّةِ صَبْرِ إبْراهيمَ، كَمَا فُوجِئَ بِمُخَالَفَتِهِ اللِّياقَةَ والأَعْراف وَاسْتِهانَتِهِ بِها. لَكِنّه قَدْ قَطعَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْداً لَا يَسْتَطيعُ أنْ يَنْكُثَهُ.

وقَبْلَ نِهايَةِ النَّهارِ، تَزَوّجَ إبْراهيمُ بِعائِشَةَ.

عاشَ الزَّوْجانِ فِي هَنَاءٍ طِيلَةَ أَشْهُرٍ دُونَ أنْ يُعَكِّرَ صَفْوَهُمَا مُعَكِّرٌ. وَكان إبْراهيمُ يكادُ يَفْقِدُ صَوابَهُ مِنَ السَّعادَةِ، وكانتْ عائِشَةُ هِيَ أيْضاً سَعِيدَةً بِعِنايَةِ زَوْجِهَا بِها وَإِغْراقِهِ إيَّاهَا بِالْهَدايَا وَضُرُوبِ الرِّعايَةِ.

ومَرَّ عَامٌ والْعائِلَتَانِ تُتَابِعانِ حَيَاةَ التِّرْحالِ. وكانَتِ الأَمْطارُ قدْ تَسَاقَطَتْ خِلالَ ذَلِكَ الشِّتاءِ فِي مِنْطقَةِ "الْعِرْقِ الواعِرِ" الّتِي تَنْتَشِرُ فيها الآبَارُ العَمِيقةُ... وكانَ العُشْبُ وَفِيراً والنُّوقُ سَمِينَةً. فَكانَ إبْراهيمُ سَعيداً.

وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، أَطْلَقَ إبراهيمُ لِنَفْسِهِ الْعِنَانَ، وَهْوَ فِي خَيْمَتِهِ، فَبَلَغَ الْحَديثَ عَنْ أَسْرارِهِ. ورَغِبَ فِي أنْ يَرْوِيَ لِعائِشَةَ الْحِيلَةَ الّتِي اسْتَعْمَلَها حَتى يَفُوزَ بِها. فَقالَ:

- لَا أَشْكُرُ اللهَ عَلى شَيْءٍ مِثْلَمَا أَشْكُرُهُ على مَا أَلْهَمَنِي إيّاهُ. هَلْ تَعْرِفِينَ يَا عَائشَةُ؟ لَوْ لَمْ أُخَطِّطْ لِمُهَاجَمَةِ مُخَيَّمِكُمْ لَمَا كُنْتِ الآنَ هُنا مَعِي.

لَمْ تَنْبِسْ عائِشةُ بِبِنْتِ شَفَةٍ، لَكِنّهَا شَعَرَتْ بِالْغَيْظِ لِكَذِبِهِ عَلَيْها. وقالَتْ فِي نَفْسِها: "هَكَذا إِذَنْ ظَفِرَ إبْراهيمُ بِمَحَبّةِ وَالِدِي، وَهَكذا خَضَعَ لِلْخَدِيعَةِ وَاسْتَهانَ بِالْعَاداتِ وهْوَ "شَيْخُ الْعُرْفِ"... لَمْ يَبْذُلْ إِبْراهيمُ شَيْئاً لِيَفُوزَ بِي. بَلْ لَمْ يُقِمْ لِي عُرْساً حَقِيقِيّاً ولا حَفْلًا لائِقاً. وَلَمْ أَكُنْ إلّا جَائِزَةً عَنْ دَيْنٍ وُلِدَ مِنْ كِذْبَةٍ، وَمُكَافَأَةً عَلَى خِدْمَةٍ مُزَيّفَةٍ. يَجِبُ أَنْ أَرُدَّ عَلى الْحِيلَةِ... بِالْحِيلَةِ".

وَقَبْلَ أَنْ تَنامَ، طافَتْ بِذِهْنِهَا هِيَ أيْضاً أَلْفُ حِيلَةٍ. وَفِي الصَّباحِ الْباكِرِ، كانَتْ قدِ اتَّخَذَتْ قَرارَها. أَصْبَحَتْ تَعْرِفُ كيْفَ سَتَتَصَرَّفُ.

ما إِنْ رَأَتْ إبراهيمَ حَتّى تَحَدّثَتْ إلَيْهِ عَمّا أفْشاهُ لَهَا فِي سَهْرَةِ اللّيْلةِ السّابِقَةِ. ولَامَتْهُ عَلى خِداعِهِ. فقالَ لَها إبْراهيمُ الّذي لَمْ يَتَعَوّدْ سَمَاعَ تَحْذِيراتٍ مِنْ زَوْجَتِهِ:

- أَنْتِ الْيَوْمَ جَرِيئَةٌ فِي تَأْنِيبِ سَيِّدِكِ وَزَوْجِكِ.

فَضَحِكَتْ عائِشَةُ وَأَجَابَتْهُ قائِلةً:

- سَتَكونُ الْجُرْأةُ فِي بَوْحِي أنَا أَيْضاً بِأُمُورٍ عَدِيدَةٍ عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهودِ.

- تَكَلّمِي يا عائِشةُ. مَاذا تَوَدّينَ أنْ تَقُولِي؟

- اِعْلَمْ يَا عَزِيزِي إبْراهيمَ أنْ حِيلَتَكَ قدْ فَاقَتْها حِيلةٌ أَحْذَقُ مِنْهَا.

فَتَقَدّمَ إبْراهيمُ مِنْ عائِشَةَ، ونَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا قائلًا:

- هَلّا أفْصَحْتِ؟

- اِعْلَمْ أنَّ والِدِي كان أَمْهَرَ مِنْكَ. لَقَدْ كُنْتَ صَرِيحاً مَعِي، وسَأَكُونُ صَرِيحَةً مَعَكَ. فَاعْلَمْ أنِّي لَسْتُ عائِشَةَ الّتِي طَالَمَا تَمَنَّيْتَهَا بِلَهَفٍ.

فَأَمْسَكَ إبراهيمُ زَوْجَتَهُ مِنْ كَتِفَيْها بِقُوّةٍ، فَتَابَعَتِ الْقَوْلَ:

- أنَا أُخْتُهَا. ولَا رَيْبَ أنّ إحْدانَا تُشْبِهُ الأُخْرَى. لَكِنَّ أُخْتِي أَجْمَلُ مِنِّي. وَلَمْ يَكُنْ وَالِدِي يُرِيدُ مَنْحَ ذَلِكَ الْجَمَالَ الأَخَّاذَ لِرَجُلٍ لَمْ يَفْعَلْ غَيْرَ إِرْجَاعِ بَعْضِ الإبِلِ... وعائِشَةُ مَا تَزالُ فِي خَيْمَتِهِ تَنْتَظِرُ مَنْ يُقَدّمُ لِوالِدَيْنا مَهْراً يَلِيقُ بِجَمالِهَا الّذِي لَا مَثِيلَ لَهُ... وهَذا هُوَ سَبَبُ رَحِيلِكَ دُونَ أن تُقَدِّمَ شَيْئاً لِوَالِدِي.

تَرَكَ إبْراهيمُ زَوْجَتَهُ... وَابْتَهَجَتْ عائِشَةُ لِمَا سَبَّبَتْهُ لَهُ مِنَ اضْطِرابٍ. فتَابَعَتِ الْقَوْلَ:

- إذَا كُنْتَ لَا تُصَدِّقُنِي، فَأَرْسِلْ أشَدَّ خَدَمِكَ إخْلاصاً إلَى وَالِدِي. وسَيَسْتَطِيعُ إبْلَاغَكَ بِالْحَقِيقَةِ.

لَمْ يَكُنْ إبراهيمُ يَعْرِفُ ما يُصَدِّقُ. هَلْ كانَ ضَحِيَّةَ خُدْعَةٍ؟ عَلَيْهِ أنْ يَكْتَشِفَ الْحقيقَةَ.

خاطَبَ زَوْجَتَهُ قائِلًا:

- يَجِبُ أنْ أرَى الْحقيقةَ بِأُمِّ عَيْنِي. وَسَأَتَنَكَّرُ فِي هَيْئَةِ تاجِرِ عِطْرٍ، وسَأَتَمَكَّنُ بِذَلِكَ مِنْ أنْ أَتَقَرَّبَ إلَى أُخْتِكِ... إنْ كانتْ مَوْجُودَةً حَقّاً. فانْتَظِرِي هُنا إلَى حِينِ عَوْدَتِي.

وبَعْدَ سَاعَةٍ، امْتَطى جَمَلَهُ واتَّجهَ إلَى نَاحيَةِ الْغَرْبِ. أمّا عائِشَةُ فَقَدْ كانَتِ الأُمُورُ عِنْدَهَا تَسيرُ عَلى أَحْسَنِ ما يُرامُ، كَمَا خَطَّطَتْ لَها. وما إنْ رَحَلَ زَوْجُها، حَتّى أَسْرَجَتْ جَمَلَيْنِ، وَلَبِسَتْ لِباسَ السَّفَرِ، ثُمَّ غادَرَتْ هِيَ أَيْضاً لِلالْتِحاقِ بِمُخَيَّمِ الشّيخِ صادقٍ، صُحْبَةَ دَليلٍ خَبيرٍ بِالصَّحراءِ.

وَلَشَدَّ مَا كانَتِ الْمُفاجَأَةُ كَبِيرَةً عِنْدَما رَآهَا والِداهَا وَإِخْوَتُها. فأَحَاطُوا بِهَا مُحْتَفِلِينَ وَهُمْ يُولُونَهَا كُلَّ الرِّعايةِ... ثُمَّ إِنَّها بَاحَتْ بِسَبَبِ مَجِيئِها قائِلَةً:

- لَقَدْ خَدَعَ إبراهيمُ والِدَنا. وَعَلَيْهِ أنْ يَعْتَرِفَ بِخَطَئِهِ، ويَدْفَعَ الْمَهْرَ الّذي عَلَيْهِ، ويَحْترِمَ عَائِلَتَنا وعَادَاتِنَا. إنّه سَيَصِلُ بَيْنَ لَحْظةٍ وَأُخرَى مُتَنَكِّراً فِي هَيْئَةِ تَاجِرٍ... وهَا هِيَ الْخُطّةُ التِي سَنَتَّبِعُهَا.

ثُمّ شَرَحَتْ عائشةُ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ الدَّوْرَ الّذي سَيَقُومُ بِهِ. وَطَلَبَتْ مِنْ خادِماتٍ لَها أَنْ يُساعِدْنَها فِي وَضْعِ كامِلِ زِينَتِهَا. فَقُمْنَ بِتَزْيينِ جُفونِها وإِعَادَةِ رَسْمِ شَفَتَيْها وَتَسْريحِ شَعْرِها وعَقْدِ أَلْفِ شَريطٍ فِيهِ وإِلْباسِهَا فُسْتاناً ثَميناً مُطَرَّزاً. وَزَيَّنَتْ مِعْصَمَيْهَا وكَعْبَيْها بِحُليٍّ مِنَ الذّهبِ والفِضّةِ. وظَلّتْ تَنْتَظِرُ وُصولَ التّاجِرِ الْمُزَيَّفِ.

لَمْ يَتَأَخَّرْ إبراهيمُ كَثيراً. وتَقَدّمَ أمَامَ خَيْمَةِ "الشّيخ صادقٍ" بِغنْدُورَتِهِ[1] الصّوفِيّةِ الْمُتَّسِخَةِ فَوْقَ جِلّابِيَّتِهِ القُطْنِيّةِ الْمُخَرَّقَةِ،

(1) الغندورة: صِدارٌ بلا كُمين.

وَسِرْوالِهِ الأَسْودِ، وشَاشِهِ[1] حَوْلَ رَأْسِهِ، وقَدَمَيْه العارِيَتَيْنِ فِي نَعَلَيْهِ الْجِلْدِيَّيْنِ البَالِيَيْنِ.

كان مِنَ الصَّعْبِ التَّعَرُّفُ إليهِ. وأخَذَ يُعَدِّدُ خِصالَ بِضاعَتِهِ بِصَوْتٍ عَالٍ. فخَرَجَتْ أُمُّ عائشةَ مِنَ الْخَيْمَةِ، واقْتَرَبَتْ منه، وأَعْلَنَتْ قائِلَةً بِلَهْجَةٍ مَرِحَةٍ:

- هذه زِيارَةٌ كُنْتُ أَنْتَظِرُهَا مُنْذُ زمَنٍ طَويلٍ. وأَظُنُّ أنّ ابْنَتِي عائِشةَ سَتُسَرُّ هِيَ أيْضاً بِشِراءِ قَوارِيرِ عِطْرٍ. فَلْتَدْخُلْ لِنَخْتارَ بَعْضاً مِنْهَا.

اِضْطَرَبَ إبراهيمُ عندَ سَماعِ هَذِهِ الْكَلِماتِ... عائِشَةُ هُنا إِذَنْ... وَلَجَ الْخَيْمَةَ، وأَخَذَتْ حَمَاتُهُ تَتَفَحَّصُ القَواريرَ الصَّغيرَةَ فِي الصُّنْدوقِ الّذي يَحْمِلُهُ عَلَى صَدْرِهِ. فَتَحَتْهَا، وشَمَّتْها، ثُمَّ وَضَعَتْهَا الْوَاحِدَةَ تِلْوَ الأُخْرَى... فَنَفَدَ صَبْرُ إبراهيمَ وسَأَلَهَا، وَهُوَ يَبْتَسِمُ، بِصَوْتٍ سَعَى جُهْدَهُ إِلَى أَنْ يَكونَ ثَابِتاً:

- أَلَمْ تَكُنْ هناكَ فِي ما مَضَى فَتَاتانِ تَعِيشانِ فِي هَذِهِ الْخَيْمةِ؟

فأَجَابَتِ الأُمُّ:

- بِالتّأكيدِ. لَكِنَّ الفَتاةَ الصُّغْرَى "مَليكَةَ" قد تَزَوّجَتِ العَامَ الْماضِيَ شَيْخاً مِنَ الْجَنوبِ، وقَدْ كان ذَلِكَ بِمَثابَةِ جَزاءٍ لَهُ على

(1) الشّاش: قطعة من القماش يُغطّى بها الرأس فلا يظهر منه في العادة غير العينين؛ وهو اللّثام.

إِرْجاعِهِ إِبِلِنَا الّتِي نُهِبَتْ مِنّا أَثْنَاءَ غَزْوَةٍ. . . ونَأْمَلُ أَلّا يَكونَ الرّجُلُ الْمِسكينُ قَدْ خُدِعَ. فَقَدْ كانَ يُعَوِّلُ على الزّواجِ بِالأُخْتِ الكُبْرَى. فَمَليكَةُ لَيْسَتْ بِجَمالِ أُخْتِهَا. وباخْتِصارٍ. . . كانَتْ وَقِحَةً جِدّاً. . . ونَحْنُ فَرِحونَ بالتَّخَلُّصِ مِنْها بَأَيْسَرِ السُّبُلِ. . .

شَحُبَ وَجْهُ إبراهيمَ وهو يَسْتَمِعُ إِلَى هَذا الكَلامِ. وفِيمَا كان يَبْحَثُ بِعَيْنَيْهِ عَنْ مَكانٍ يَجْلِسُ فِيهِ، ظَهَرَتْ عائِشَةُ أمامَهُ. واعْتَقَدَ التّاجِرُ الْمُزَيَّفُ أنّهُ فِي حُلُمٍ. فهوَ لَمْ يُشاهِدِ امْرَأَةً بِهذا الْجَمالِ. فقدْ كانت عَيْنَاها الْمُتَّقِدَتانِ تَلْمَعانِ مِثْلَ حَجَرَيْنِ كَرِيمَيْنِ، وكان لِحَرَكاتِهَا هَيْبَةُ أَمِيرَةٍ، وكانَ قَوامُها مَمْشُوقاً. . . ولَا رَيْبَ أنّ الْمَرْمَرَ الشَّفَّافَ الصّافِيَ كانَ دُونَ عُنُقِهَا بَيَاضاً، وأنّ العَسَلَ كانَ دُونَ رَنَّةِ صَوْتِهَا حَلَاوَةً.

نعَمْ. . . لقَدْ خدَعَهُ "الشيْخ صادقٌ" حَقّاً.

لَمْ يكُنْ يَرْغَبُ إلّا فِي الفِرَارِ مِنْ هذا الْمَكانِ الّذِي يَشْعُرُ فيهِ بِالْحَقَارَةِ، والتّفْكِيرِ فِي الانْتِقامِ. لَكِنّ الفَتَاةَ صَفَّقَتْ بِكَفَّيْهَا، فَوَثَبَ إِخْوَتُها الثّلاثَةُ الْمُتَخَفِّينَ. وفِي ظَرْفِ دَقائِقَ وَجَدَ إبراهيمُ نَفْسَهُ مُلْقًى أَرْضاً وقَدْ قُيِّدَتْ رِجْلاهُ بِيَدَيْهِ.

ثُمّ اسْتَدْعَتْ عائشةُ خادِمَاتِهَا مِنْ جَديدٍ كَيْ يُعِدْنَهَا إلَى هَيْئَتِهَا الطَّبِيعِيّةِ. وبَعْدَ أنْ أُزِيلَتْ مَظاهِرُ الزّينَةِ والتَّبَرُّجِ، تَعَرَّفَ إبْراهيمُ حَبِيبَتَهُ عائشَةَ.

وابْتَسَمَتْ لَهُ بِخُبْثٍ لِانْتِصارِهَا علَيْهِ، فَقَدْ فاقَتْهُ حِيلَةً وَدَهاءً.

وظهرَ "الشيخ صادقٌ"، وقالَ لإبراهيمَ:

- يَا إبراهِيمُ... إنَّكَ لَستَ مُطالَباً فَقَطْ بِتَرْضِيَتِي، بَلْ إنَّكَ مُطالَبٌ أيْضاً بِالالْتِزَامِ بِدَفْعِ الْمَهْرِ الّذي يَجِبُ على كُلِّ طالِبٍ لِلزّواجِ أنْ يَدْفَعَهُ لِوَلِيِّ الْعَرُوسِ. فَهَلْ أنْتَ مُسْتَعِدٌّ لِدَفْعِ الْمَهْرِ لِتَحْتَفِظَ بِابْنَتِي؟

فَأَجابَهُ إبْراهيمُ:

- لَقَدْ أَرْسَلْتُ عِشْرِينَ جُنْدِيّاً لِنَهْبِ مَوَاشِيكَ. وَسَأَمْهَرُكَ عِشْرِينَ مِنَ الإبِلِ. لَكِنّي أَلْتَمِسُ عَفْوَكَ وَعَفْوَ أُسْرَتِكَ. واعْلَمْ أنّ الْحُبَّ الّذي أُكِنُّهُ لِعائِشَةَ هُوَ السَّبَبُ الوَحِيدُ الّذي جَعَلَنِي أَحِيدُ عَنْ أَعْرَافِنَا. وأُؤَكِّدُ لَكَ أَنّي سَأَحْتَرِمُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عاداتِ قَبيلَتِنَا. وَإِنِّي لَأَرْغَبُ فِي حَمْلِ لَقَبِ "شَيْخِ الْعُرْفِ" مِنْ جَديدٍ دونَ أنْ أَقَعَ فِي الزَّلَلِ.

عِشرونَ مِنَ الإبِلِ؟ لَقَدْ فاقَ هذَا الْمَهْرُ بِكَثِيرٍ مَا كان "الشّيْخُ صادقٌ" يَتَوَقَّعُهُ. ثُمَ إنَّ الشّيْخَ العَارِفَ بالرِّجالِ أَدْرَكَ صِدْقَ الشَّابِّ فِي أَقْوالِهِ. وكانَ يَعْرِفُ مِنَ ابْنَتِهِ نَفْسِهَا أنَّ سَعَادَتَهَا فِي الاقْتِرانِ بِهَذَا الرّجُلِ.

قَبِلَ "الشيخ صادِقٌ" اعْتِذَارَهُ، وَفَكَّ قَيْدَهُ، وَدَعَاهُ إِلَى الْجُلوسِ قُرْبَ خِوانٍ صَغِيرٍ مُسْتَدِيرٍ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ رَاعٍ عَجُوزٌ يَحْمِلُ بِإِحدى يَدَيْهِ إبْريقَ شايٍ مَطْلِيّاً باللَّوْنِ الأَخْضَرِ وبِاليَدِ الأُخْرى فِنْجانَيْنِ مِنَ البِلَّوْرِ مائِلَيْنِ إِلَى الصُّفْرَةِ وقَدْ نُقِشَتْ عَلَيْهِمَا صُوَرٌ

مُخْتَلِفَةُ الأَلْوانِ. فَوَضَعَها علَى الْخِوانِ، وَصَبَّ الشّايَ بِتُؤَدَةٍ. . . وَشَرِبَا ثَلاثَةَ كُؤوسٍ، الْواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، كَما تَقْتَضِي العَادَةُ. . .

وقَال لَهُ الرّاعي:

- لَقَدْ أحْسَنْتَ صُنْعاً بِمَجيئِكَ إلَى هُنا. وَإِنَّ اللهَ رَاضٍ عَنْكَ، لِأَنَّكَ قَدْ ظَفِرْتَ بِالْهِدايَةِ والنّورِ. . .

الْغُولُ وَالْبُسْتَانِيُّ

وَفِيهَا نَتَعَرَّفُ غُولًا يَسْرِقُ مَحاصِيلَ بُسْتَانٍ، وَنَرَى الْبُسْتَانِيَّ يَنْصِبُ لَهُ شَتَّى أَنواعِ الشِّرَاكِ دُونَ جَدْوَى.. ثُمَّ يَطْلُبُ الْمَسَاعَدَةَ مِنْ سَاحِرَةٍ.



كانَ مُحَمَّدٌ سَعيداً بِنَصيبِهِ فِي الْحَياةِ، فَقَدْ كان لَا يَنْسَى فِي صَلَوَاتِهِ الْخَمْسِ أنْ يَشْكُرَ اللهَ لأنَّهُ قَيَّضَ لهُ الْعَيْشَ فِي هَذهِ الْواحَةِ الصَّحْراوِيَّةِ الْمُمْتِعةِ الَّتِي وَهَبَتْهُ فيهَا الشَّمْسُ والْمَاءُ والنَّخيلُ والأَزْهارُ والْحَيَوانُ والنّاسُ لَمْحَةً مِنَ الْجَنَّةِ.

قبْلَ أنْ تَشْتَدَّ حَرارَةُ الشّمسِ، يَسْلُكُ مُحَمَّدٌ كُلَّ صَباحٍ طَريقاً تُوصِلُهُ إلَى الْوَاحةِ ومِنْ ثَمَّةَ إلَى بُسْتانِهِ الّذي يَتَوَسَّطُهُ بِئْرٌ. وكانَ الْجَريدُ الْيَابِسُ الذي يُحيطُ بِالبُسْتانِ يَحُولُ دُونَ زَحْفِ الرِّمالِ. وكانَتْ هُناكَ أصْنافٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْخُضَرِ اليَانِعَةِ تَنْمُو رَيَّا، يَقِيهَا مِنْ لَهيبِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْجَريدُ العَريضُ الْمَجْلوبُ مِنَ النَّخْلِ العَالِي الّذِي يَنْبُتُ فِي الأَنْحاءِ. وإذا أَضَفْنَا إلَى هَذا الزَّقْزَقَاتِ البَهِيجَةَ الّتِي كانتْ تُطْلِقُهَا عَصافِيرُ القُوبَعِ أو الدُّخُلَةِ أوْ الصُّرَدِ الْمُخْتَبِئَةِ بيْنَ شُجَيْراتِ الْمِشْمِشِ أوْ الرُّمَّانِ أوْ العُنّابِ.. نُدْرِكُ جيِّداً الْمُتْعَةَ

الّتِي كانتْ تَغْمُرُ مُحَمّداً وتَدْفَعُهُ إلَى الْمَجيءِ يَوْمِيّاً لِلْعَمَلِ فِي مِثْلِ هذا الْمَكانِ.

فِي ذلكَ الصَّباحِ، وَصَلَ مُحمّدٌ باكِراً جِدّاً. وتَخَلّصَ كَعادَتِهِ مِنْ بُرْنُسِهِ وغَنْدُورَتِهِ قَبْلَ أنْ يَتّجِهَ نَحْوَ البِئْرِ... وكانَ يَتَصرَّف آلِيّاً دُونَ أنْ يَشْغَلَ تَفْكيرَهُ بِشَيْءٍ ذِي بَالٍ.

وفَجْأةً أَطْلَقَ صَيْحَةَ فَزَعٍ عِنْدمَا وَصلَ إلَى الْمَغْرُوسَاتِ. فَقَدْ جُرِّدَتْ نِصْفُ نَبْتاتِ الطّماطِمِ مِنْ ثِمَارِها وَطُرِحَتْ سِيقَانُهَا عَلى الرِّمالِ الْجَافَّةِ فِي حالَةٍ يُرْثَى لَهَا. لقَدْ جاءَ أَحَدُهُمْ لَيْلًا وسَرَقَ الْمَحْصولَ.

وسُرْعَانَ ما تَحَوَّلَتِ الْمُفاجَأةُ إلَى غَضَبٍ، فأَقْسَمَ مُحمّدٌ ألَّا يَدَعَ الْمُذْنِبَ يُفْلِتُ مِنَ الْعِقابِ.

لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ يَسْتطيعُ أنْ يَصْنَعَ شَيْئاً أمامَ خَرابٍ كَهَذَا. لقَدْ خَرَّبَ اللِّصُّ كُلَّ مَا صَادَفَ فِي طَرِيقِهِ حتّى يَصِلَ إلَى هَدَفِهِ الْمَنْشودِ. ولَمْ يُعِرِ البُسْتانَ أيَّ احْتِرامٍ.

لَاحَظَ محمّدٌ آثارَ أقْدام علَى التُّرابِ... لَا رَيْبَ أنّ الرَّجُلَ كانَ ضَخْماً، بَلْ إنّهُ كانَ ضَخْماً جِدّاً، لأنَّ قَدَمَ البُسْتانِيِّ لَا تُغَطِّي إلَّا نِصْفَ الأثَرِ الذِي تُرِكَ عَلى التُّرابِ. وَتَابَعَ مُحمّدٌ هذِهِ الْخُطَى إلَى أبْعَدِ مَكانٍ اسْتَطاعَ بُلُوغَهُ. لَكِنَّهَا ضاعَتْ لِلأَسَفِ بيْنَ أَشْجارِ الوَاحَةِ.

ماذا بِوُسْعِ البُسْتانِيِّ أنْ يَصْنَعَ؟ فَالنُّواحُ لَنْ يُوصِلَهُ إلَى مَعْرِفَةِ الفَاعِلِ.

بعْد تَفْكيرٍ عَمِيقٍ، خَمَّنَ مُحمّدٌ أنّ السَّارِقَ يَعُودُ دَوْماً إلَى مَكانِ فِعْلَتِهِ. فَقَرَّرَ أَلَّا يَعُودَ إلَى مَنْزِلِهِ وأنْ يَكْمُنَ ويَرْصُدَ الْمكانَ عنْدَ حُلولِ الْمَساءِ.

وبَعْدَ سَاعاتٍ قَليلةٍ إثْرَ غُروبِ الشَّمْسِ، كانَ البُستَانِيُّ يَكْمُنُ، كَمَا خَطَّطَ، وَراءَ أَكَمَةٍ مِنَ الرَمْلِ يَنْتَظِرُ "الْمُجْرِمَ". كانتْ عَيْنَاهُ مفْتُوحَتَيْنِ دُونَ أنْ يُذْعِنَ لِدَعَةِ اللَّيْلِ، وَلَمْ تَأْخُذْهُ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ... لَكِنْ... كَما ظَنَّ هُوَ، فَقَدْ أَخْلَدَ إلَى النَّوْمِ لِبَعْضِ الوَقْتِ.

أيْقَظَتْهُ خَشْخَشَةُ أَغْصانٍ ارْتَجَفَ لَهَا. وظَهَرَ لَهُ علَى بُعْدِ بِضْعَةِ أمتارٍ شَبَحٌ ضَخْمٌ يَعْرُجُ بِإحْدَى سَاقَيْهِ. ورَغْمَ أنّه لَمْ يَتَبَيَّنْ مِنْهُ سِوى الظَّهْرِ، فَإنَّ هذَا "الشَّيْءَ" لَمْ يَكُنْ فيهِ مَا يُشْبِهُ رَجُلًا. بَلْ إنّهُ كانَ يَرْفَعُ رَأسَهُ مِنْ حينٍ لآخَرَ يَسْتَنْشِقُ الْهَواءَ مِثْلَ حَيَوانٍ. ثُمّ تَقَدّمَ الكَائِنُ الغَريبُ عَلى ضَوْءِ القَمَرِ ومُحمَّدٌ لَا يَرى مِنْهُ دائِماً سِوى الظَّهْرِ. ولَكِنَّهُ أصْبَحَ الآنَ يَسْتَطِيعُ مُشاهَدَتَهُ بِصورَةٍ أَفْضَلَ. فَلَمْ يكُنْ رَأسُهُ فِي حَقيقةِ الأَمْرِ سِوى شَعْرٍ غَزيرٍ أَسْوَدَ يَظْهَرُ مِنْ كُلّ جِهَةٍ فيهِ طَرَفَا أُذُنَيْنِ نَحِيلَتَيْنِ، وكانَ الْجِسْمُ العَريضُ كَثيفَ الشَّعْرِ كَقِرْدٍ ضَخْمٍ، وكانَتْ يَداهُ تَكادانِ تُلامِسانِ الأَرْضَ وتَنْتَهِي بِأصَابعَ مَفْتُولَةٍ ذَاتِ مَخَالِبَ. وكانَ لِلْوَحْشِ ساقَانِ مُقَوَّسَتانِ وقَدَمانِ ضَخْمَتَانِ تَبْدُوَانِ مَكْسُوَّتَيْنِ... بِالْحَرَاشِفِ.

تَذَكَّرَ مُحمّدٌ حِينَئِذٍ حِكايَاتٍ كانَ جَدُّهُ يَرْوِيهَا لهُ. وكانت عَيْنا هَذا الْمَخْلوقِ الوَاقِفِ هُناكَ هُما عَيْنَا... الغُولِ. نَعَمْ... الغُولُ.

هَذا الغُولُ الشِّرِّيرُ الّذي كانَ الأَجْدادُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ والّذِي يَتَرَدَّدُ مُنْذُ قَدِيمِ الزّمانِ عَلى الْبَساتِينِ.

تَقَدّمَ الْمَخْلوقُ مِنْ نَباتاتِ الطّماطِمِ، وغَرزَ مَخالِبَهُ فِي الثِّمارِ النَّاضِجَةِ، والْتَهَمَ مِنْها ما يُناهِزُ العَشْرَ. ثُمّ فَرَّ دُونَ سَبَبٍ واخْتَفى فِي عَتَمَةِ غابَةِ النّخيلِ.

تَجَمّدَ الدَّمُ فِي عُروقِ مُحمّدٍ مِنَ الْخَوْفِ، ولَمْ يَتَحَرَّكْ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ حتّى طَلَعَ النّهارُ. وعِنْدَمَا ثَابَ إلَى رُشْدِهِ، هَرْوَلَ إلَى القَرْيَةِ وشَقَّها فِي حالَةِ هَيَجانٍ وهْوَ يَصيحُ:

- لَقَدْ عَادَ غُولُ البَساتِينِ. . . لقَدْ عادَ غُولُ البَساتينِ.

ورَوَى لِلْجميعِ مَا كانَ رَأَى. لَكِنَّ قِلّةً مِنْهُمْ كانُوا يُصَدِّقُونَ هَذِهِ القِصّةَ الّتِي تَتَحَدّثُ عَنْ وَحْشٍ مِنَ الزَّمَنِ الغَابِرِ.

وعادَ مُحمّدٌ إلَى مَنْزِلِهِ خائِباً لِمَوْقِفِ أهْلِ الْقَرْيَةِ مِنْهُ. لَمْ يُصَدِّقْهُ أَحَدٌ، ولَنْ يُعِينَهُ أَحَدٌ عَلى هَزْمِ الغُولِ. واتّخَذَ مُحمّدٌ قَراراً خَطيراً مُعْتَمِداً عَلى شَجاعَةٍ وعَزِيمَةٍ لَمْ يَعْرِفْ لَهُمَا مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ. وقالَ:

- سَأَقْبِضُ عَلى الغُولِ وأَقْتُلُهُ بِنَفْسِي.

كانَ مُحمّدٌ ماهِراً فَطِناً، فَقَدْ تَعَوَّدَ على تَجْهيزِ الأَفْخاخِ لِلْقَبْضِ عَلى بَناتِ آوَى الّتي كانَتْ تَتَسَلَّلُ إلَى الوَاحَةِ.

وقالَ فِي نَفْسِهِ:

- إنَّ فَخّاً أَكْبَرَ وأَقْوَى سَيَكونُ كافِياً لِلْقَبْضِ علَى هذا الْمَخْلوقِ.

وَرَغْمَ اشتِدادِ الْهاجِرَةِ فِي تلكَ الظَّهيرَةِ، فَقَدْ عادَ مُحمّدٌ إلَى بُسْتَانِهِ، وَنَصبَ فَخَّهُ. وقدْ ضاعَفَهُ، بلْ جَعَلَ الْحِبالَ أَشَدَّ سُمْكاً بِثَلاثِ مَرّاتٍ، مُتّخِذاً أَلْفَ احْتِياطٍ لإخْفاءِ طَريقَةِ الْعَمَلِ الذَّكِيَّةِ الّتِي لا يَشُكُّ فيها. لَا رَيْبَ أنّه سَيَتمكَّنُ مِنَ القَبْضِ على هَذا الْمَخلُوقِ الشِّرِّيرِ.

أَدْرَكَ أنّه قدْ أصْبَحَ جاهِزاً، وانْتَظرَ حتّى نِهايَةِ اليَوْمِ لِيَخْتَبِئَ مِنْ جَديدٍ. وكانَتِ الْمُدْيَةُ إلَى جَانِبِهِ هذهِ الْمَرَّةَ. إنّه سِكِّينُهُ القَوِيّ ذُو الْمِقْبَضِ الشّبيهِ بِالقَرْنِ وذُو الشَّفْرَةِ الْحادَّةِ، سِكِّينُهُ الّذي أَهْداهُ إيّاهُ وَالِدُهُ مُنْذُ سِنينَ.

خَيّمَ اللّيْلُ عَلى الصّحراءِ مُنْذُ بُرْهةٍ. وكان مُحمدٌ قَدِ اسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ العَميقِ عِنْدمَا...

كلَاكْ...

تَقَطّعَتِ الْحِبالُ الّتِي داسَتْها أَقْدامُ الغُولِ رَغْمَ مَتانَتِها. والْتَوَتْ فِي نَفْسِ الْحَركةِ بَيْنَ أَرْجُلِهِ فَسَقطَ بِكُلِّ ثِقَلِهِ على الأَرضِ. وعَمّتْ غابَةَ النّخيلِ صَيْحةُ أَلَمٍ عَظيمَةٌ تُجَمِّدُ الدّمَ فِي العُروقِ رُعْباً.

فأمْسَكَ محمّدٌ بِمُدْيَتِهِ وانْدفَعَ مِنْ مَخْبَئِهِ. لكنّ مَخالِبَ الوَحْشِ القَوِيّةَ سُرعانَ ما قَطَعَتِ الْحِبالَ الّتِي تَشُدّهُ. فَلَمْ يَجِدِ البُسْتانِيُّ الوَقتَ الكَافِيَ لِيَصِلَ إلَى قامَتِهِ الْمُرْتَفِعَةِ. وفَرّ الوَحْشُ واخْتَفَى فِي ظُلْمَةِ اللّيْلِ البَهيمِ.

شَعَرَ محمّدٌ بالقُنُوطِ. فَلَمْ يَصْمُدِ الفَخُّ الّذي نَصَبَهُ إلّا ثَوانِيَ مَعْدودَةً. وَلَمْ تَنْجَحْ خُطّتُهُ إلّا فِي إتْلافِ ما بَقِيَ مِنْ مَزْروعاتِهِ.

ولَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ إلّا العَوْدَةَ إلَى بَيْتِهِ.

واتّجَهَ مِنَ الغَدِ مَرّةً أخرى إلَى بُسْتانِهِ وهْوَ واثِقٌ مِنْ أَمْرٍ واحِدٍ هُوَ أنّ الغُولَ لَنْ يَتْرُكَهُ بِسلَامٍ. وَلَمْ يَنْتَبِهِ البُستانِيُّ الغارِقُ فِي خِضَمِّ أفكارِهِ إلَى شَخْصٍ يَعْرُجُ على الطّريقِ الضَّيِّقةِ، فَداسَهُ عَلى غَفْلَةٍ مِنْهُ.

حينَ ثابَ إلَى رُشْدِهِ اعْتَذَرَ مِنْهُ قائِلا:

- ألْفَ مَعْذِرَةٍ.

قالَ الرّجُلُ ذو القَامةِ الفارِعةِ الْمُثيرَةِ لِلدّهْشةِ بِفُضولٍ:

- لقَدْ كَنْتُ أَبْحَثُ عَنْكَ. أَلَسْتَ مَنِ اكْتَشَفَ الغُولَ؟

وتَرَدّدَ محمّدٌ فِي الإجابةِ قائِلًا:

- حسَنٌ... بَلَى...

فأضافَ الرّجُلُ الغَريبُ قائِلًا:

- يَنْبَغِي أنْ نَعْذُرَ شُكوكَ القَرَوِيِّينَ. فَهُمْ يَرْفضونَ تَصديقَ مَا لَا يَفْهمُونَهُ. أمّا أنا فإنّي قادِرٌ عَلى مُساعَدَتِكَ. أنْتَ تُؤْمِنُ بالأرْواحِ والسِّحْرِ، ألَيْس كذلِكَ؟ هُناكَ ساحِرَةٌ تُقيمُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ بَعيدٍ مِنْ هُنا، فِي غَرْبِ الوَاحةِ. اِذْهَبْ لاسْتِشارَتِها، واذْكُرْ لَهَا أنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنْ قِبَلِي، ولَسوْفَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَصَرّفُ.

ولَمْ يَنْتَظِرِ الرّجلُ جَواباً. بَلْ غادَرَ محمّداً وهْوَ يُحَيِّيهِ بِيَدِهِ، وسَارَ علَى الطّريقِ وهْوَ يَعْرُجُ.

وواصَلَ البُستانِيُّ طريقَهُ هُوَ أيْضاً. لَكِنّهُ لَمْ يَنْفَكَّ يُفكّرُ: "هَلْ هَذا هُوَ الْحَلُّ يا تَرَى؟ إنَّ الأَشرارَ هُمُ الوَحيدُونَ القَادِرونَ على التَّغَلُّبِ عَلى كائِنٍ شِرِّيرٍ".

ودُونَ أنْ يُدرِكَ تَماماً ما هُوَ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ، اتَّجَهَ ناحِيَةَ الْغَرْبِ. ورَأى حَقّاً وَرَاءَ مُنْعَطَفِ كَثِيبٍ مِنَ الرّمالِ خَيْمَةً مُنْتَصبَةً عِنْدَ مُنْحَدَرِ هَضبةٍ. وكانَتْ هناكَ امْرَأةٌ جالِسَةٌ فِي ظِلِّ الْخَيمةِ. وعَرّفَ محمّدٌ بِنَفْسِهِ، وشَرَحَ أسبابَ مَقْدَمِهِ.

أجابَتِ السّاحِرةُ:

- أَعْرِفُ غُولَ البَساتِينِ. وإنّكَ لَمَحْظوظٌ، فَإنّي قَدْ صَنَعْتُ للتَّوِّ رَغْوَةَ القَمَرِ... وهْوَ مُسْتَحْضَرٌ نادِرٌ سَيُكَلِّفُكَ بَعْضَ القِطَعِ الذّهبيّةِ. لكنّ هذه الْجُرْعَةَ ستُمكِّنُكَ منَ التَّخَلُّصِ مِنَ الوَحْشِ. يَكْفي أنْ تَضَعَها على حَبّةِ طَماطِمَ، وسَوْفَ يَفْعَلُ السّحْرُ مَفْعولَهُ. لكِنْ حذارِ. يَجِبُ ألّا تكونَ حاضِراً، لأنّ السّحرَ قَوِيٌّ، ويُمْكِنُ أنْ يُؤْذِيَكَ.

كانَ محمّدٌ مُقْتَنِعاً بكلامِ السّاحرةِ. لكنّ مَالَهُ لَمْ يكُنْ مَعَهُ. فقَطَعَتْ عليْهِ السّاحرةُ عَهْداً بِأَلّا تَبيعَ الْمُسْتَحْضَرَ لأَحَدٍ غَيْرِهِ. وقال لَها إنّهُ سَيَعودُ فِي ذلكَ الْمَساءِ نَفْسِهِ ومَعَهُ النّقُودُ.

وَوَفَى بِوَعْدِهِ. فقَدْ جَلَبَ كيساً مَليئاً بالقِطَعِ الذّهبيّةِ. واسْتَلَمَ العَقَّارَ قُبَيْلَ أَنْ يُرْخِيَ اللّيْلُ سُدولَهُ. ثُمّ أَسْرَعَ جَرْياً إلَى بُسْتَانِ الْخُضَرِ الّذي يَمْلِكُهُ، وسَكَبَ السّائِلَ الثّمينَ لَيْسَ على حَبّةِ طماطمَ واحِدَةٍ فَقَطْ بَلْ على عِشْرينَ حَبّةً، لِيَكُونَ ذلك أَكْثَرَ ضَمَاناً لِنَجاحِ

العَمَلِيّةِ. ثُمّ قَفَلَ راجِعاً إلَى بَيْتِهِ، مُتّبِعاً بذلِكَ تَعالِيمَ السّاحِرَةِ.

وكانتِ الْمُحاوَلَةُ الأُولَى هِيَ الأَكْثرُ نَجاحاً. فقَدْ سَمِعَ أهْلُ القَرْيَةِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللّيْلِ صياحاً مُرْعِباً، ثُمّ انْقَطَعَ الصّراخُ. وعِنْدمَا رَافَقَ القَرَوِيُّونَ مُحمّداً صَباحاً إلَى غابَةِ النّخيلِ، اكْتَشَفُوا آثارَ أَقْدامٍ ضَخْمَةٍ، وقُرابَةَ عِشْرينَ حبّةَ طمَاطمَ مَشْقوقَةً، لكنّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلسّارِقِ أثراً. ولَمْ يَشُكَّ البُستانِيُّ فِي أنَّ الوَحْشَ قدْ ماتَ، فَقَدْ كان السِّحْرُ مِنَ القُوّةِ بِحَيْثُ إنَّ الغُولَ قَدْ تَبخّرَ تَمامَ التَّبَخُّرِ.

ولَمْ يَشْهَدْ محمّدٌ فِي الأيّامِ التّاليةِ أيّةَ زِياراتٍ لَيْلِيّةٍ. كانَ يَجُولُ فِي بُستانِهِ كُلَّ يَوْمٍ وهْوَ يُهَنِّئُ نَفْسَهُ على رُؤْيَةِ الثِّمارِ والْخُضَرِ وهْيَ تَنْمُو دُونَ أنْ يُعَكِّرَ صَفْوَهَا مُعَكِّرٌ... حتّى وإنْ كانتْ راحَةُ البَالِ هذهِ قَدْ كلّفَتْهُ ثَرْوَةً صَغيرَةً.

وشَاعَ أَمْرُ هذه الْحادِثَةِ الْمُزْعِجَةِ ونِهايَتِهَا السّعيدَةِ بَيْنَ النّاسِ. وأَصْبَحَتْ حِكايَةً مَثلِيّةً تُمَثَّلُ فِي ساحاتِ السّوقِ. وذاتَ يَوْمٍ شُخِّصَتِ الْحِكايَةُ أمامَ ناظِرَيْ الشّيْخِ عُمَرَ وَمَجْلِسِهِ. وشُغِفَ الْحُضورُ كُلُّهُمْ بِهذهِ الْحِكايَةِ العَجِيبَةِ إلّا رَجُلًا وزَوْجَتَهُ مِنَ البَدْوِ لَمْ يُعِيرَا اهْتِماماً لِلرّاوِي ولَا لِلْمُمَثِّلينَ.

كانَتِ الْمَرْأةُ ذاتُ الْهَيْئَةِ الْمَأْلُوفَةِ تَحْمِلُ فِي نِطاقِهَا مِسْبَحَةً مِنَ الْقوارِيرِ الصّغيرَةِ الْمُلَوّنَةِ. وكانَ الرّجُلُ ذُو الهامَةِ الضّخْمةِ يَعْرُجُ فِي مِشْيَتِهِ ويَشُدُّ إلَى صَدْرِهِ كيساً كبِيراً تَظْهَرُ مِنْهُ بارُوكَاتٌ غَرِيبةٌ قَاتِمَةُ السّوادِ وَ... ثَوْبٌ تَنَكُّرِيٌّ مَكْسُوٌّ بِالْحَرَاشِفِ.

جاك غوييه: سيرة ذاتية

وُلِدَ جاك غوييه Jacques Gohier سنة 1938 بمدينة لومان le Mans (القريبةِ من باريس) بفرنسا. بدَأَ الكتابةَ منذُ كانَ في الخامسةَ عشْرةَ مِنْ عُمُرِهِ. فَكَتبَ قصائدَ نُشرتْ في الْمجلّاتِ الأدبيّةِ وأُلْقِيَ بعضُها فِي الإذاعاتِ الْمَحلّيّةِ، وشارَكَ ببعضِها فِي الْمُسابقاتِ الأدبيّةِ.

انتقلَ إلَى الجزائرِ في سِنّ التّاسعةَ عشرةَ تقريباً، فعَمِلَ معلّماً في واحةِ "الواد" الّتي تقعُ في الشّرق الجزائريّ غيْرَ بعيدٍ عنْ "شطّ الجريد" التّونسيّ. وظلّ في هذه الوظيفةِ من سنة 1958 إلى سنة 1962. وقد أسّسَ هناك أوّلَ جريدةٍ أدبيّةٍ في الصّحراءِ.

عادَ إلى فرنسا سنة 1962، وعُيّنَ مُرْشِداً عامّاً للتّربيةِ في مدينته لومان سنة 1970. وظلّ في هذه الوظيفةِ إلى سنة 1996، وهو تاريخُ تقاعده.

عُرِفَ بنشاطِه الأدبِيّ الكثيفِ. فقدْ أسّسَ لِجانَ الكُتّابِ في عدّةِ مناطقَ فرنسيّةٍ، وأرْسى جائزةَ الأقصوصة بمدينة لومان، وتولّى إدارةَ جمعيّةِ "فرنسا كيباك".

انتُخِبَ سنَةَ 1976 أميناً عامّاً للفيدراليّة الوَطنيّة لجمعيّات كُتّابِ فرنسا، وسنة 1982 رئيساً لكتّابِ الغرب الفرنسيّ.

عَمِلَ مستشاراً بلديّاً في مدينة لومان بيْن سنتَيْ 1983 و 1989.

تولّى رئاسةَ تحرير مجلة "La vie Mancelle et Sarthoise" سنَةَ 1994، ثُمّ أصبَحَ مُديراً لها سنة 2000.

هو عضوٌ في عدّة جمعيّاتٍ منها "La Maison des Ecrivains" و"La Charte des Auteurs" و"Illustrateurs pour la Jeunesse".

حصل على عدّة جوائزَ أدبيةٍ، منها: جائزة الأكاديمية الفرنسية وأكاديمية مان Maine (جائزة المجلس الأعلى بسارت Sarthe سنة 1991) وجائزة بلدية رين Rennes (جائزة كوريغان Korrigan سنة 1999). واختير كتابه الّذي نترجِمُهُ من بين أحسن أربعين كتاباً من بين أربع مئةِ كتاب صدرت في سلسلة "هاشيت للشباب"...

أصدر ما يقارب خمسةَ عشَرَ كتاباً منها:

- الحضور المغاربي. Présence magrébine (1964)
- لقاء مع الكيباك. Rencontre avec le Quebec (1970)
- قاموس الكُتّاب المعاصرين في منطقة بلاد الغرب.

Dictionnaire des écrivains d'aujourd'hui dans les pays d'ouest (1979)

- قاموس الكُتّاب المعاصرين في بروتانيا. Dictionnaire des écrivains d'aujourd'hui au Bretagne (1984).

- المغامرة المهرية. L'aventure méhariste (1991, 1995).

- سرّ الطارقي الأبيض. Le secret du Targui blanc (1996, 2002).

- الانزلاق الضوئي في "الواد". Le glissement lumineux de l'Oued (1997).

- في بلاد الكثبان. Aux pays des dunes (2000).

- تاريخ "سارت" مروية للأطفال. L'histoire de la Sarthe Racontée aux enfants (2002).

- خفّا بشير ونوادر أخرى. Les Babouches de Bachir et autres farces (2004, 2006).

- مدرسة الرمال. L'école des sables (2004).